الطاغوت

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

بقلم

عبد المنعم مصطفى حليمة

«أبو بصير»

دار البيارق

الطاغوت

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

بقلـــم

عبد المنعم مصطفى حليمة

«أبو بصير»



الطبعة الأولى

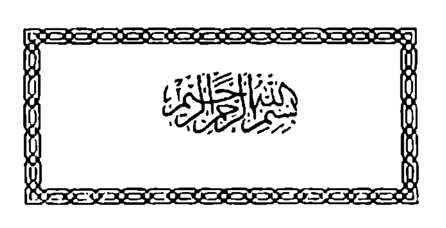
١٤١٧هـ / ١٩٩٦م

دار البيارق

للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان ـ بيروت ـ ص.ب: ١١٣/٥٩٧٤


الطاغوت


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ﴾.

اللهمَّ ها قد بيّنّا... ها قد بيّنا... فلا صَبْرَ لنا على النار.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمـة:

إنَّ الحمدَ لله نحمَدُه ونستعينه ونستغفِرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئات أعمالِنا، مَن يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هادِيَ له.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّهُ وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاتِهِ ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾(١)

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلَقَ منها زوجَهَا وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءَلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾(٢)

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولُوا قولاً سديداً. يُصلِحْ لكم أعمالكم ويغفِرْ لكم ذنوبَكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾(٣)

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٢

(٢) سورة النساء، الآية ١

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان. ٧٠، ٧١

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ اللَّهِ، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكُلَّ مُحدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

اللهمَّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيلَ، فاطِرَ السماوات والأرض، عالِمَ الغيب والشهادةِ، أنت تحكمُ بين عبادِكَ فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تهدي من تشاءُ إلى صراطٍ مُستقيم.

فإن الغاية من وجود الإنسان، بل والخلق كله، عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وما أمروا إلاَّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حُنَفَاء﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فأَقم وجهك للدين حنيفاً فطرتَ اللَّهِ التي فطرَ الناسَ عليها لا تبديل لخلق الله﴾[3].

وفي الحديث فقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة...»[4].

---

(1) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(2) سورة البينة، الآية: ٥.

(3) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(4) رواه مسلم.

وفي الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء كُلُّهم...»[1]. أي مسلمين موحدين.

لكن شياطين الإنس والجن عملت منذ القدم ـ ولا تزال ـ على صرف الناس عن التوحيد الخالص، وتأمرهم بعبادة غير الله عز وجل. فهي تارة تزين لهم عبادة غير الله عز وجل بالركوع والسجود، فإن لم تُفلح تزين لهم عبادة غيره تعالى بالاستغاثة والدعاء والطلب، فإن لم تفلح تزين لهم الإشراك عن طريق التوكل والإنابة والخشية، فإن لم تفلح تزين لهم الإشراك والعبودية لغير الله تعالى عن طريق الطاعة والاتباع والانقياد، فإن لم تفلح زينت لهم العبودية لغير الله تعالى عن طريق التحاكم والتحليل والتحريم...

وهذا هو المراد من قوله تعالى في الحديث القدسي: «وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»[1].

لذلك أرسل الله تعالى الرسل ـ حسماً للحجج والأعذار ـ مبشرين أهل التوحيد الخالص، ومنذرين أهل الكفر والشرك، داعين إلى عبادة الله وحده، والكفر بكل ما يعبد سواه أياً كان نوع المعبود وصفته وحاله.

كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[2].

---

(1) رواه مسلم.
(2) سورة النحل، الآية: ٣٦.

وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[2].

فقضية توحيد الله في العبودية والكفر بالطاغوت، كانت الهمّ الأكبر، والغاية العظمى للأنبياء والرسل، لا يصرفهم عنها صارف، ولا يشغلهم عنها شاغل، ولم تكن تقبل عندهم المساومة، أو يرضوا فيها أنصاف الحلول، فإما استسلام وعبودية مطلقة لله تعالى وحده، وهو الإيمان، أو عبودية للطاغوت ـ ولو في جانب من جوانب العبادة ـ فهو الكفر والشرك، والخروج من دائرة الدين الحق إلى دين الطاغوت.

لذا كان لأجلها تُسلُّ السيوف، وتُبعث البعوث، وتجهز الجيوش، وعليها يُعقد الولاء والبراء. ويُعلن الحرب والسلم، وفي سبيلها تُبذل المهج والأرواح، ويرخص كل غالٍ ونفيس.

فإنها ـ بحق ـ قضية لا بد من أن تُحسم أولاً ـ وبوضوح وصراحة ـ مع الطواغيت كل الطواغيت: مَن المعبود بحق في الوجود، هم أم الله الواحد القهار؟

فهي مسألة ـ عندنا ـ لا يمكن تجاوزها ولو استغرق ذلك الدهر كله، أو الانشغال عنها بأي مسألة مهما عظمت أهميتها، قبل أن

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣١.

نُعطى عليها إجابة صريحة صادقة من الناس كل الناس. . .

من المعبود بحق في الوجود. . .؟؟

ومما يؤسف له أننا نلحظ كثيراً ممن يعملون في حقل الدعوة، والوعظ والإرشاد ـ رهبة أو رغبة ـ قد تجاوزوا هذه القضية الهامة قبل أن تُحسم مع القوم، بل قبل أن نُفاتح معهم، وانشغلوا عنها بالفروع، والرقائق، والفقهيات، وبما لا يترتب عليه تبعات من قبل الطواغيت. . . !

وهؤلاء أنى لجهودهم أن تثمر في نفوس الناس، وقد تجاهلوا أصل الأصول الذي لا يمكن أن يُرفع بناء من دونه، وهم ـ في عملهم هذا ـ مثلهم مثل من يريد غرس شجرة ممتدة الجذور والفروع، فيبدأ بغرس الغصون والفروع متجاهلاً الجذور والأصول التي من دونها لا يثبت شجر ولا ينبت ثمر. . . !

وهذه الرسالة التي أسميتها «الطاغوت» نبحث فيها المسائل التالية:

ـ العبادة، معناها، أنواعها ومجالاتها. . .

ـ حال الناس وحقيقة العبادة. . .

ـ مفهوم الدين وما يندرج في معناه. . .

ـ كلمة الإله ومشتقاتها، وخصائصها. .

ـ الطاغوت، معناه وصفته. .

ـ أنواع الطواغيت التي تعبد من دون الله في هذا الزمان. .

ـ الكفر بالطاغوت شرط لصحة الإيمان. .

ـ صفة الكفر بالطاغوت . .

وغيرها من المسائل الهامة ذات العلاقة بالبحث، سنجتهد في بيانها والإجابة عليها بإذن الله تعالى.

﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾[1].

والهدف العام لهذه الرسالة، هو إرشاد العباد إلى عبادة الله وحده، وتحذيرهم من عبادة الطواغيت ـ وقد تنوعت وتعددت وعلت فتنتها على البلاد والعباد ـ التي تدعي الألوهية من دون الله تعالى، والتي تعمل ليل نهار على تعبيد العباد لذواتها ولو في أوجه دون أوجه من العبادة . .

أسأل الله تعالى القبول، والتوفيق، والسداد، والثبات، وحسن الختام، إنه تعالى سميع قريب مجيب.

وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبها

عبد المنعم مصطفى عبد القادر حليمة

أبو بصير

عفا الله عنه وعن والديه بمنه ورحمته

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

مفاهيم بين يدي البحث

لكي يدرك المرء حقيقة موقفه من عبادة الله، وفي أي دين هو، ومن مألوهه المطاع: الله أم الطاغوت، أرى أنه لا بد من تناول المفاهيم التالية كتمهيد ضروري للبحث، وهي:

العبادة، الدين، الإله، الطاغوت.

وبخاصة أن هذه المفاهيم والمصطلحات قد اعترتها كثير من الشروحات والتفسيرات الخاطئة التي شوهت حقيقة معانيها في أذهان الناس، وبالتالي فهم إذا ما خوطبوا بها حملوها على غير محملها الشرعي الصحيح، مما جعلهم أن يقعوا في المحظور، وأن يكونوا طعماً سهلاً للشباك التي ينصبها لهم الطواغيت.

١ ـ العبــادة:

العبادة لغة: تعني التذلل والخضوع والطاعة والدينونة، ومنه الطريق المعبد إذا كان مذللاً بكثرة الوطء[١].

وشرعاً: فهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[٢]، ويتضمن ذلك كمال الخضوع

---

(١) انظر لسان العرب، والقاموس المحيط.

(٢) العبودية لابن تيمية.

والطاعة والانقياد مع كمال الحب لله تعالى.

فمن أتى بالطاعة والانقياد من غير حب لله تعالى فهو منافق مبغض، ومن زعم حبَّ الله تعالى من غير طاعة ولا انقياد لظاهر الشريعة فهو زنديق كذاب، كما قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[1].

قال ابن كثير: هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله[2].

ومما تقدم يعلم أن العبادة شاملة لجميع جوانب ومجالات الحياة الإنسانية، فأي قول أو عمل أو اعتقاد يرضي الله تعالى ويتقرب به إليه فهو داخل في مسمى العبادة والعبادة تطاله وتشمله.

وبالتالي فإن العبد عندما يُطالب بعبادة الله تعالى وحده، فهو يراد منه هذا المعنى العام لمعنى العبادة: عبادته تعالى وحده في الركوع والسجود والخضوع، وعبادته في الصوم والحج والنذر والنسك، وعبادته في الحب والكره، والجهاد والتضحية، والخشية والتوكل، وفي الدعاء والإنابة والرجاء، وفي الطاعة والانقياد والاتباع والحكم والتحاكم، وغيرها من الأمور الواجبة والمستحبة شرعاً.

ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) التفسير: ١/٣٦٦.

ليعبدون﴾[1].

«أخبر سبحانه أنه إنما خلقهم للعبادة، وكذلك إنما أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه فالعبادة هي الغاية التي خلقوا لها»[2].

«فالنفي والاستثناء هما أقوى صور الحصر والقصر في اللسان العربي، ومعناهما النفي البات من جهة والحصر الكامل من الجهة الأخرى، نفي أي غاية للوجود البشري غير عبادة الله، وحصر غاية هذا الوجود كله في عبادة الله.

إن شعائر التعبد لا يمكن بداهة أن تكون هي كل العبادة المطلوبة من الإنسان، فما دامت غاية الوجود الإنساني كما تنص الآية الكريمة محصورة في عبادة الله، فأنى يستطيع الإنسان أن يوفي العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب؟!

كم تستغرق الشعائر من اليوم والليلة؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان؟ وبقية العمر؟ وبقية الطاقة، وبقية الوقت، أين تنفق وأين تذهب؟

تنفق في العبادة أم في غير العبادة؟ وإن كانت في غير العبادة فكيف تتحقق غاية الوجود الإنساني التي حصرتها الآية حصراً كاملاً في عبادة الله؟ وكيف يجوز للإنسان ـ من عند نفسه ـ أن يجعل لوجوده أو لجزء من وجوده غاية لم يأذن بها

(1) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(2) بدائع التفسير لابن القيم: ٤/٢٤٨.

الله؟»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[2].

قال ابن الجوزي: مقصود الآية أنه أخبرهم أن أفعالي وأحوالي لله وحده، لا لغيره كما تشركون أنتم به[3].

فكما أن النسك والشعائر التعبدية لله وحده، كذلك بقية الحياة وما يعتريها من أحوال وتقلبات ومواقف فهي كلها لله تعالى وحده، حتى الممات يجب أن يكون لله وفي الله وليس للوطن أو لأوثان نصبت في زماننا ـ فتنت الناس عن دينها ـ ما أنزل الله بها من سلطان.

ومن الأدلة كذلك على شمولية العبادة في الإسلام وأنها أعم من النسك والشعائر، قوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾[4].

فالأمر بالعبادة هنا جاء عاماً شاملاً لجميع جوانب العبادة ومجالاتها، ثم خص الله تعالى بالذكر من مجالات العبادة الصلاة والزكاة لبيان أهميتهما في الإسلام.

ونحو ذلك قوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس، على أن يعبد الله

---

(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح لمحمد قطب، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.
(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.
(٣) زاد المسير: ٣/ ١٦١.
(٤) سورة البينة، الآية: ٥.

ويكفر بما دونه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان»[1].

فالأمر بالصلاة والزكاة وحج البيت وصوم رمضان ليس تكراراً للأمر بعبادة الله تعالى، وإنما هي تخصيص هذه الفرائض من عموم يشمل جميع مجالات العبادة وعلى رأسها التوحيد.

وغيرها كثير من الأدلة التي تدل على أن العبادة في الإسلام أشمل وأعم من أن تحصر في المناسك والشعائر التعبدية وحسب.

ولكن مع مرور الزمن على حملات التضليل والتجهيل ـ المكثفة والمستمرة ـ بحقيقة هذا الدين، التي تنهض بها العلمانية الكافرة من جهة، وفرق الصوفية والإرجاء من جهة أخرى، مما أدى إلى تشويه وانحسار كثير من المفاهيم الشرعية عن مدلولها الشرعي الصحيح، من تلك المفاهيم ـ التي تطالتها أيدي التضليل والتشويه ـ العبادة[2]، حيث حصروه في دائرة أداء المناسك والشعائر التعبدية التي ساحتها المساجد والمعابد والزوايا وحسب!

حتى تشكل لدى كثير من الناس أن العبادة تعني تلك الشعائر وحسب، فانعكس ذلك سلباً على تصوراتهم وعقائدهم وسلوكهم،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) انظر كتاب مفاهيم ينبغي أن تصحح للأستاذ محمد قطب، فصل مفهوم العبادة، وقد بين فيه الشيخ أن مفهوم العبادة ـ بسبب عوامل التجهيل والتضليل ـ قد انحسر في أذهان الناس إلى مجرد أداء حركات باهتة للشعائر التعبدية، لا تؤدي وظيفتها الأخلاقية والعقدية في النفس والمجتمع.. وهو أمر مشاهد وملموس.

ولربما تجد أحدهم يعبد الله في الركوع والسجود لكنه يعبد من دونه آلهة أخرى في المجالات الأخرى للعبادة، ثم بعد ذلك يظن نفسه أنه على الحق المبين!!

ولو أنكر عليه منكِر فإنه سرعان ما ينظر إلى إنكاره نظرة اعتراض واستهجان واستغراب، وعلى أنه يريد أن يقحم السياسة ساحة الدين، ويقحم الدين مجالات ليست تابعة له ولا من اختصاصه!!

لذا فإنه يتعين علينا أن نبين للناس أخص ما يدخل في مسمى العبادة، ويُجرى على صاحبه مسمى العبودية سواءً أقر بذلك أم لم يقر، وليعلم أهو داخل في عبادة الله وطاعته أم في عبادة المخلوق وطاعته، ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾[1].

من ذلك:

أ ـ الطاعة: اعلم أنه لا يُطاع لذاته إلا الله سبحانه وتعالى لأنه الإله المعبود المستحق لذلك، ولأنه تعالى لا يأمر إلا بالحق والعدل، وما سواه ـ أيّاً كانت صفته وهيئته ـ فإنه يُطاع لغيره ـ أي لله ـ لا لذاته، وأيما مخلوق يطاع لذاته فهو مألوه معبود، والمطيع له ـ على هذا الوجه ـ هو عبد له بكل ما تعني كلمة العبودية من معنى، وداخل في مسماها لغة واصطلاحاً، ثم أي مخلوق يأمر بأن يطاع على هذا الوجه فاحذره وحذّر منه، واعلم أنه طاغوت كبير يجب الكفر به.

وقولنا يطاع لذاته؛ أي يطاع لأن ذاته مستحقة للطاعة بغض النظر

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

عن طبيعة الأوامر الصادرة عنه وصفتها، ومثل هذه الطاعة لو أعطيت لمخلوق فهي عين الشرك والكفر البواح، وإليك بعض الأدلة على ذلك:

قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾[1]، عبادة الشيطان هنا بطاعته في معصية الله، زين لهم الشرك فأطاعوه، فتلك كانت عبادتهم إياه[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزَّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم﴾[3].

وفي قوله: ﴿إن الذين ارتدوا. . .﴾، قال ابن كثير: أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر[4]. وذلك بسبب قولهم للذين كرهوا شرع الله سنطيعكم في بعض الأمر، وإذا كان الأمر بهذا الحزم والخطورة فما يكون القول إذاً فيمن يقولون للذين تجاوزوا مرحلة الكره إلى مرحلة المحاربة والعداوة الظاهرة لشرع الله عز وجل سنطيعكم في كل الأمر وكل ما تأمرون به، لا شكَّ أنهم أولى في الكفر والارتداد والخروج من الدين.

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.

(٢) انظر تفسير الطبري، وزاد المسير.

(٣) سورة محمد، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٤) التفسير: ٤/١٩٣.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾[1].

أي إن أطعتموهم في استحلال أكل الميتة بعدما حرّمها الله عليكم إنكم لمشركون مثلهم بعد أن كنتم مؤمنين[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

(٢) ينبغي للقارىء أن يدرك أن الطاعة المذمومة شرعاً نوعان: نوع مكفر يخرج صاحبه من الملة، ونوع دون ذلك لا يُخرج صاحبه من الملة، أما النوع المكفر الذي يخرج صاحبه من الملة: أن يُنظر لمخلوق ـ أياً كانت صفته ونوعه ـ أن له حق الطاعة على العباد لذاته ولمكانته، وأن أمره يُطاع لأنه هو صاحب الأمر والنهي بغض النظر هل وافق الحق فيما أمر أو نهى عنه.. فهذه طاعة مكفرة لأنها تتضمن التأليه للمخلوق.

وكذلك من الطاعة المكفرة طاعة المشركين والكفار فيما هو كفر وشرك، كأن يأمروه بموالاتهم على المسلمين، أو بتحليل ما قد حرمه الله، وغير ذلك من الأمور المكفرة.. فطاعتهم على ذلك كفر وشرك وصاحبها يكفر لوقوعه في الكفر والشرك وليس لمجرد الطاعة، إلا إذا كان يعتقد في المطاع أن له حق الطاعة لذاته فهنا يكون كفراً لمجرد الطاعة أو الإقرار لهذه الخاصية كما تقدم.

أما النوع غير المكفر الذي لا يخرج صاحبه من الملة، وإنما يوقعه في دائرة الفسوق والعصيان هي الطاعة التي تكون دون ما تقدم، كالطاعة فيما يعتبر من المعاصي والذنوب التي هي دون الكفر، ما لم يتبع هذه الطاعة استحلال وتحسين لتلك المعاصي والذنوب فحينها تكون طاعة مكفرة.

فإذا عرفت ذلك، فتأمل كم هم المطاعون لذواتهم في زماننا، وكم هم الذين يعطونهم الطاعة على ذلك، فتجد أن مجتمعاتنا تغص بالآلهة المزعومة المكذوبة، وأن أكثر الناس على عبادتهم من دون الله، سواء علموا أم جهلوا.

ولا يُسمى شيء شركاً إلا إذا كان فيه نوع عبادة وتأليه للمخلوق، فحينما يرد ذكر الشرك والكفر فاعلم أنه يوجد نوع عبادة وتأليه لغير الله عز وجل.

ونوع العبادة والتأليه للمخلوق هنا يكمن في طاعة المشركين في أخص خصيصة من خصوصيات الله عز وجل، ألا وهي خاصية التحليل والتحريم، والتحسين والتقبيح، كما قال تعالى: ﴿إن الحكم إلا لله﴾[1]، وقال: ﴿ولا يُشرك في حكمه أحداً﴾[2].

فالذي يقول للمخلوق ـ أياً كانت صفته وهيئته ونوعه، كان شخصاً أو نظاماً أو مجلساً أو غير ذلك فلا فرق ـ: أنت لك خاصية التشريع، والتحليل والتحريم، والتحسين والتقبيح؛ فما تقول عنه حسن فهو الحسن وما تقول عنه قبيح فهو القبيح، ولك الأمر من قبل ومن بعد، ولك علينا حق الطاعة في ذلك، فقد زعم له الألوهية التي زعمها فرعون لنفسه، وتحققت له عبوديته ـ وإن صلّى وصام وقال إنني من المسلمين ـ وجعل منه نداً لله في أخص خصوصياته سبحانه وتعالى.

قال ابن حزم في الإحكام (١/ ٩٣): العبادة إنما هي الاتباع والانقياد مأخوذة من العبودية، وإنما يعبد المرء من ينقاد له ومن يتبع أمره، وأما من يعصي ويخالف فليس عابداً له وهو كاذب في ادعائه أنه يعبده[3] ا. هـ.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٦.

(٣) قلت: هذا كلام ينبغي أن يحمل على التفصيل المتقدم في بيان نوعية =

ومما يوضح ذلك أكثر قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[1].

قال البغوي في التفسير: فإن قيل إنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان ـ بمعنى الركوع والسجود ـ قلنا: معناه أنهم أطاعوهم في معصية الله واستحلوا ما أحلُّوا وحرَّموا ما حرموا، فاتخذوهم كالأرباب.

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب[2] فقال لي: «يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك»، فطرحته فلما انتهيت إليه وهو يقرأ: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾، حتى فرغ منها قلت: إنا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه»، قال: قلت بلى، قال: «فتلك عبادتهم»[3].

فتأمل كيف جعل النبي ﷺ طاعة الأحبار والرهبان في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله عبادة لهم، واتخاذهم أرباباً من دون الله.

= الطاعة التي تكفِّر، والطاعة التي لا تكفر.

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) فيه تقرير لمبدأ العذر بالجهل، وأن الجهل الذي يكون عن عجز لا يمكن دفعه فإنه يعذر صاحبه، أياً كان نوع جهله سواء كان في العقائد والأصول أم في الفروع لا فرق.

(٣) تفسير البغوي: ٣/ ٢٨٥.

ولو أمروهم أن يصلوا ويصوموا لهم لما أطاعوهم ولربما رجموهم، لأن مثل هذه الشعائر عبادة ظاهرة لا تخفى على عوام الناس فضلاً عن خاصتهم، ولكن جاؤوهم من جهة الطاعة والانقياد ـ وهذا أمر تخفى فيه صفة العبودية على كثير من الناس ـ فأطاعوهم وعبدوُهم من دون الله من هذا الوجه، ومن غير حرج!!

قال أبو البختري: أما إنهم لم يصلوا لهم، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ـ بمعنى السجود والركوع ـ ما أطاعوهم، ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية[1]. وتلك عبادتهم.

قال ابن تيمية: فمن جعل غير الرسول[2] تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه، وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله نداً، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح، فهذا من الشرك الذي يدخل صاحبه في قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[3].

وقال: فمن طلب أن يطاع دون الله فهذا حال فرعون[4]، ومن

---

(١) الفتاوى لابن تيمية: ٧/ ٦٧.

(٢) طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عز وجل، لأن الأنبياء لا يأمرون إلا بما يأمر به الله، لذا فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله»، والأمر بطاعة الرسول ﷺ واتباعه جاء في أكثر من ثلاثين موضع وآية من القرآن الكريم.

(٣) الفتاوى: ١٠/ ٢٦٧.

(٤) أي هو مثل فرعون حيث يطلب أن يُفرد بالطاعة من دون الله، وما أكثر =

طلب أن يطاع مع الله فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونه كحب الله. والله سبحانه أمر أن لا يعبد إلا إياه، وأن لا يكون الدين إلا له، وأن تكون الموالاة فيه والمعاداة فيه[1].

ورحم الله سيد قطب إذ يقول: عندما يدعي عبد من العبيد أن له على الناس حق الطاعة لذاته، وأن له فيهم حق التشريع لذاته، وأن له كذلك حق إقامة القيم والموازين لذاته، فهذا هو ادعاء الألوهية ولو لم يقل كما قال فرعون: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾، والإقرار به هو الشرك بالله أو الكفر به، وهو الفساد في الأرض أقبح الفساد...

إن الذي يملك حق التحريم والتحليل هو الله وحده، وليس ذلك لأحد من البشر، لا فرد ولا طبقة ولا أمة ولا الناس أجمعين، إلا بسلطان من الله وفق شريعة الله...

والتحليل والتحريم - أي الحظر والإباحة - هو الشريعة، هو الدين، فإذا كان الذي يحلل هو الله، فالناس إذن في دين الله. وإن كان الذي يحرم أو يحلل أحداً غير الله، فالناس إذن يدينون[2] لهذا الأحد، وهم إذن في دينه لا في دين الله، والمسألة على هذا الوضع هي مسألة الألوهية وخصائصها، وهي مسألة الدين ومفهومه، وهي مسألة الإيمان وحدوده، فلينظر المسلمون في أنحاء الأرض أين هم من هذا الأمر؟ أين هم من هذا الدين؟ وأين هم من الإسلام وإن

= الفراعنة في زماننا الذين يدّعون هذا الادعاء لأنفسهم.

(١) الفتاوى: ١٤/٣٢٨.

(٢) يدينون له إن رضوا به مشرعاً لهم من دون أو مع الله، أو اتبعوه فيما يحلل ويحرم.. هكذا ينبغي أن يحمل كلام سيد رحمه الله.

دانوا ما يزالون يصرون على ادعائهم للإسلام!![1].

لذلك نجد أن الإسلام قد رشد قضية الطاعة أيما ترشيد منعاً للنفوس المريضة أن تستغلها فتتمادى في غيها وظلمها وطغيانها، فمنع من طاعة المخلوق ـ أي مخلوق ـ في معصية الخالق سبحانه وتعالى، وجعل طاعته ـ فقط ـ في المعروف وبما فيه طاعة لله عز وجل، وإلا فلا سمع ولا طاعة أصلاً.

كما في الحديث: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[2].

وقال ﷺ: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»[3].

وفي رواية: «لا طاعة لبشر في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف».

وقال ﷺ: «طاعة الإمام حق على المرء المسلم، ما لم يأمر بمعصية الله عز وجل، فإذا أمر بمعصية الله فلا طاعة له»[4].

وقال ﷺ: «سيلي أموركم بعدي رجال يطفئون السنة، ويعملون بالبدعة، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فقلت ـ وهو عبد الله بن مسعود ـ: يا رسول الله إن أدركتهم كيف أفعل؟ قال: تسألني يا ابن

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن: ٢/ ١٧٠ و ١٧٩.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أحمد وغيره، السلسلة الصحيحة: ٢/ ١٣٩.

أم عبد كيف تفعل؟! لا طاعة لمن عصى الله»[1].

وقال: «من أمركم من الولاة بمعصيةٍ فلا تطيعوه»[2].

حتى الوالدين ـ على فضلهما وعظم حقهما على الولد ـ لا طاعة لهما إن أمرا ابنهما بمعصية الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾[3].

ب ـ التحاكم: كذلك مما يدخل في مسمى العبادة ومجالاتها «التحاكم» فإن كان العبد يتحاكم في جميع شؤون حياته الخاصة والعامة إلى شرع الله تعالى فهو عبد لله عز وجل، وإن كان يتحاكم إلى شرع غيره ـ أياً كان هذا الغير ـ ولو في جزئية من جزئيات حياته فهو عبد لهذا الغير وداخل في عبادته من أوسع أبواب العبادة. وسرُّ ذلك أن الحكم والتشريع وسن القوانين والقيم والموازين يعتبر من أخص خصوصيات الألهية، فمن ادعاه لنفسه من دون ـ أو مع ـ الله عز وجل فقد ادعى الألهية وزعمها لنفسه اختصاصاً وعملاً، وجعل من نفسه نداً لله عز وجل في أخص خصوصياته. وبالتالي من أقر له

---

(1) السلسلة الصحيحة: «١٧٥٢».

(2) رواه أحمد وغيره، السلسلة الصحيحة: «٢٣٢٤». أقول: النهي عن طاعة الإمام الوارد في الأحاديث أعلاه، لا يستلزم الخروج عليه وعدم طاعته مطلقاً، وإنما اعتزاله وعدم طاعته فيما يعتبر معصية فقط، إلا إذا كانت المعصية التي يأمر بها من النوع التي تكفره وتخرجه من الملة، فحينها لا طاعة له البتة، ويتعين الخروج عليه بالسيف لقوله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾، ولقوله ﷺ: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»، ولقوله: «من ارتد عن دينه فاقتلوه».

(3) سورة لقمان، الآية: ٣١.

بهذا الحق وتحاكم إليه ـ من دون أو مع الله ـ فهو داخل في عبادته من دون الله أقر بذلك أم لم يقر، عَلِمَ أم جهل.

ولكي تتضح أن عملية «التحاكم» هي عبادة من المتحاكم إلى المتحاكم إليه، لا بد من أن نثبت أولاً ـ بالدليل الشرعي ـ أن الحكم والتشريع من مقتضايات الألوهية واختصاصها، وهي من أخص خصوصيات الله عز وجل لا يجوز أن يشركه فيها أحد من خلقه، وأن أي مخلوق ـ أياً كانت صفته ونوعيته ـ يدعي شيئاً من ذلك لنفسه فإنه قد زعم الألوهية وجعل من نفسه إلهاً للعباد، ونداً لله عز وجل في أخص خصوصياته.

قال تعالى: ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

نفي بعده إثبات يفيد الحصر والقصر، أي ليس الحكم ـ وهو التشريع الذي يتضمن القضاء والأمر والنهي ـ لأحدٍ إلا لله تعالى. ثم أتبع ذلك نفي وإثبات آخر، وهو أمره تعالى بأن لا يُعبد أحد ـ في أي جزئية أو مجال مْن مجالات العبادة ـ إلاَّ إياه سبحانه وتعالى.

وهذا نص في أن الحكم من خصوصيات الله وحده لا يشركه فيه أحد من خلقه، وأيما مخلوق يزعم لنفسه هذا الحق فقد زعم الألوهية وجعل من نفسه نداً لله تعالى، وكذلك من أقر له بهذا الحق فقد تحققت له عبوديته من دون الله تعالى، وأشركه في العبادة مع الله تعالى.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

قال البغوي في التفسير: (إن الحكم)، ما القضاء، والأمر والنهي إلا لله[1].

وقال سيد قطب رحمه الله: إن الحكم لا يكون إلا لله، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية، من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته؛ سواء ادعى هذا الحق فرد أو طبقة، أو حزب، أو هيئة، أو أمة، أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالمية. ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفراً بواحاً، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة، حتى بحكم هذا النص وحده.

وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم، وتجعله منازعاً لله في أولى خصائص ألوهيته ـ سبحانه ـ فليس من الضروري أن يقول: ما علمت لكم من إله غيري، أو يقول: أنا ربكم الأعلى، كما قالها فرعون جهرة. ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية، ويستمد القوانين من مصدر آخر، وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية، أي التي تكون هي مصدر السلطات، جهة أخرى غير الله سبحانه، ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية..

وفي قوله: ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾، قال: حين نفهم معنى العبادة على هذا النحو ـ وهو الدينونة لله وحده، والخضوع له

---

(١) ٢/٤٢٧.

وحده، واتباع أمره وحده ـ نفهم لماذا جعل يوسف عليه السلام اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم، فالعبادة ـ أي الدينونة ـ لا تقوم إذا كان الحكم لغيره.

ومرة أخرى نجد أن منازعة الله الحكم تخرج المنازع من دين الله ـ حكماً معلوماً من الدين بالضرورة ـ لأنها تخرجه من عبادة الله وحده، وهذا هو الشرك الذي يخرج أصحابه من دين الله حتماً، وكذلك الذين يقرون المنازع على ادعائه، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله وخصائصه، فكلهم سواء في ميزان الله[1].

﴿ذلك الدين القيم﴾، وهو تعبير يفيد القصر، فلا دين قيماً سوى هذا الدين الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة[2].

ومن الأدلة كذلك قوله تعالى: ﴿ولا يُشرك في حكمه أحداً﴾[3].

قال الطبري في التفسير: ولا يجعل الله في قضائه، وحكمه في خلقه أحداً سواه شريكاً، بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم، وتدبيرهم وتصريفهم فيما شاء وأحب[4].

وقال الشنقيطي رحمه الله: المعنى ولا يشرك الله جل وعلا أحداً

---

(١) لأن الراضي بالشيء كفاعله، والقاعدة الشرعية تقول: الرضى بالكفر كفر. انظر أدلة القاعدة وشرحها في كتابنا قواعد في التكفير.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ١٩٩٠ ـ ١٩٩١.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٦.

(٤) التفسير: ٨/ ٢١٢.

في حكمه بل الحكم له وحده جل وعلا لا حكم لغيره ألبتة، فالحلال ما أحله تعالى والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، والقضاء ما قضاه، وحكمه جل وعلا المذكور في قوله: ﴿ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ شامل لكل ما يقضيه جل وعلا، ويدخل في ذلك التشريع دخولاً أولياً.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الحكم لله وحده لا شريك له فيه جاء مبيناً في آيات أخر؛ كقوله تعالى: ﴿إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الحكم إلا لله عليه توكلت﴾، وقوله تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾، وقوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾، وقوله: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾، وقوله تعالى: ﴿قل أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾، إلى غير ذلك من الآيات[1].

ومن لوازم هذا التسليم ـ وهو أن الله تعالى متفرد في الحكم والتشريع، وأن الحكم من خصوصياته تعالى لا يُشركه فيه أحد من خلقه ـ ومقتضياته أن من يدعي من العباد صلاحية الحكم لنفسه من دون الله تعالى ـ أو معه ـ فقد ادعى الألوهية والربوبية، وجعل من نفسه نداً وشريكاً لله تعالى، ونصب من نفسه إلهاً معبوداً على العباد.

ومن الأدلة التي تزيد المسألة وضوحاً وتبسيطاً، قوله تعالى عن فرعون: ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله

---

(١) أضواء البيان: ٤/ ٨٢.

غيري﴾[1]، ﴿فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى﴾[2].

فهنا فرعون لم يرد من الألوهية والربوبية التي زعمها لنفسه، أنه الإله الخالق المتصرف بنواميس الكون فهو أعجز وأحقر من أن يخلق بعوضة فأدنى، وعندما واجهه موسى عليه السلام بآية العصا حيث تحولت إلى أفعة تسعى، لم يكن له حول ولا قوة سوى أن استنجد بالسحرة والمشعوذين ليذردوا عنه وعن سلطانه، ولكن أنى له ولهم أمام آيات الله الباهرات...

إذاً هو يريد من دعواه الألوهية والربوبية أنه لا حاكم ولا مشرع ولا مطاع ترجع إليه الأمة ـ في جميع شؤون حياتها ـ سواه، فالأمر والرأي له من قبل ومن بعد.

وهذا المراد يظهر بصورة أوضح عندما نادى في قومه وجنده: ﴿قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾[3]. فالرأي والتشريع ما يراه ويشرعه هو لا ما يراه ويشرعه غيره، تلك كانت دعوى الألوهية والربوبية التي زعمها فرعون لنفسه، فمن رضي له ذلك وتابعه عليه، كان داخلاً في تأليهه وعبادته من أوسع أبواب ومجالات العبادة.

وبالتالي فإن أي مخلوق ـ أيّاً كانت صورته ونوعيته، كان فرداً، أم مجلساً، أم حزباً، أم شعباً أم غير ذلك ـ وفي أي زمان كان، يدعي لنفسه صلاحية الحكم والتشريع، وأنه مصدر التشريع، وأن

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ٢٩.

على العباد طاعته واتباعه في ذلك، فقد ادعى الألوهية والربوبية التي ادعاها فرعون لنفسه، وإن لم يقل كما قال فرعون: ﴿ما علمت لكم من إله غيري. . . أنا ربكم الأعلى﴾.

وهذا المعنى نجده في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[1]. وكذلك قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾[2].

وقد فسر النبيُّ ﷺ الربوبية التي ادعوها لأنفسهم أنهم قد شرّعوا فأحلوا وحرموا للناس من غير سلطان من الله تعالى. كما فسر عبادة الناس لهم بطاعتهم واتباعهم على ذلك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[3].

قال الشوكاني: فيه تعجيب لرسول الله ﷺ من حال هؤلاء الذين ادعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا بين الإيمان بما أنزل على رسول الله، وهو القرآن، وما أنزل على مَن قبله من الأنبياء فجاؤوا بما ينقض عليهم هذه الدعوى ويبطلها من أصلها ويوضح أنهم ليسوا على شيء

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣١.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٠.

من ذلك أصلاً، وهو إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت[1]، وقد أمروا فيما أنزل على رسول الله وعلى من قبله أن يكفروا به[2].

وقال محمد بن إبراهيم آل الشيخ: فإن قوله عز وجل (يزعمون) تكذيب لهم فيما ادعوه من الإيمان، فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي ﷺ مع الإيمان في قلب عبد أصلاً، بل الإيمان ينافي الآخر[3].

قلت: ولا ينتفي الإيمان إلا لنوع شرك ينقض الإيمان، والشرك لا يُسمى شركاً إلا إذا تضمن نوع عبادة للمخلوق، فدل أن التحاكم إلى الطاغوت عبادة صريحة له من دون الله تعالى.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾[4].

قال ابن القيم رحمه الله: أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم

---

(١) كل شرع غير شرع الله تعالى فهو طاغوت، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ حديث مفصل عن الطاغوت...

(٢) فتح القدير: ١/ ٤٨٢.

(٣) رسالة تحكيم القوانين.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦٥.

لحكمه كل الإنشراح وتنفسح له كل الانفساح وتقبله كل القبول، ولا يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض[1].

قلت: إذا كان الإيمان لا يثبت لصاحبه إلا بالتحاكم إلى شرع الله عز وجل، فإن ذلك يدل على أمرين: أولهما أن التحاكم إلى شرع الله تعالى عبادة له سبحانه، لأنه شرط للإيمان، ولا يكون شيء شرطاً للإيمان إلا إذا كان يتضمن نوع عبادة لله عز وجل. أما الأمر الثاني، فهو أنّ عدم التحاكم إلى شرع الله عز وجل.. ينفي الإيمان عن صاحبه، وقد تقدم أن الإيمان لا ينتفي عن صاحبه إلا للشرك الذي يتضمن عبادة المخلوق، ولو في وجه من الأوجه.

فدل أن «التحاكم» عبادة من المتحاكم إلى المتحاكم إليه، فمن يتحاكم - في جميع شؤون حياته الخاصة والعامة - إلى الله وحده فهو عبد لله تعالى، ومن يتحاكم إلى غيره - أياً كان هذا الغير ولو في جزئية من جزئيات حياته - فهو عبد لهذا الغير..

قال القرضاوي في كتابه «العبادة»: فمن ادعى من الخلق أن له أن يشرع ما شاء، أمراً ونهياً، وتحليلاً وتحريماً، بدون إذن من الله، فقد تجاوز حده وعدا طوره، وجعل نفسه رباً أو إلهاً من حيث يدري أو لا يدري.

ومن أقر له بهذا الحق، وانقاد لتشريعه ونظامه، وخضع لمذهبه وقانونه، وأحل حلاله وحرم حرامه، فقد اتخذه رباً، وعبده مع الله

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٢٧٠.

أو من دون الله، ودخل في زمرة المشركين من حيث يشعر أو لا يشعر[1].

وقال الشنقيطي: ويفهم من هذه الآيات كقوله: ﴿ولا يُشرك في حكمه أحداً﴾، أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله، وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخر...

ومن أصرح الأدلة في هذا: أن الله جل وعلا في سورة النساء بين أن من يريد أن يتحاكموا إلى غير ما شرعه الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾.

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته[2]، وأعماه عن نور الوحي مثلهم[3].

وبعد، فمن يتأمل حال الأمة من هذه القضية الهامة، يدرك أن هذا

---

(١) ص ٥٥.

(٢) ما أكثر هؤلاء في زماننا، ولقد وجدنا بعضهم من توقف عن تكفير طغاة قد اجتمعت فيهم جميع نواقض الإيمان..!!.

(٣) أضواء البيان: ٤/ ٨٣ ـ ٨٤.

الدين قد عاد غريباً كما بدأ وأشد؛ حيث أن الحاكم والمشرع - في أكثر الأمصار والديار - هو الطاغوت، وأن الشريعة المتبعة هي شريعة الطاغوت، والناس يتحاكمون إليها طواعية ومن دون أن يجدوا في أنفسهم حرجاً من ذلك، فدخلوا في زمرة المشركين الذين يعبدون الطاغوت من حيث يشعرون أو لا يشعرون، ولربما تجد منهم - ومع ذلك - من يصلي ويصوم، ويزعم أنه من المسلمين. . . !!

جـ - الحب والكره (الموالاة والمعاداة):

مما يدخل كذلك في مسمى العبادة: الحب والكره، والموالاة والمعاداة، فمن كانت موالاته ومعاداته، وحبه وكرهه لله تعالى وفي الله، بحيث يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله، ويوالي مَن يوالي اللَّهَ ورسولَه، ويعادي من يعادي الله ورسوله، ويرضى ما يُرضي الله، ويَبغض ما يبغض الله تعالى، فهو حينئذ يكون عبداً لله تعالى وحده، وقد كمل إيمانه، ومن كان مناط حبه وكرهه، وموالاته ومعاداته غير الله تعالى، فهو عبد لهذا الغير - مهما اختلفت وتعددت صوره وأشكاله - وداخل في عبادته وتقديسه أقر له بذلك أم لم يقر.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[1].

وقال ﷺ: «أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في

(١) رواه أبو داود وغيره، السلسلة الصحيحة: ٣٨٠.

الله، والحب في الله، والبغض في الله عز وجلّ»[1].

وكون ذلك أوثق عرى الإيمان، فهو لتحقق كمال العبودية وأعلى مراتبها ودرجاتها، وبالتالي فمن أعطى ذلك لغير الله تعالى فقد تحققت عبوديته لهذا الغير بأعلى مراتب العبودية ودرجاتها.

فلا يُحب لذاته إلاّ الله تعالى، وما سواه يحب له سبحانه وتعالى وليس معه، وأيما مخلوق ـ أياً كانت صورته[2] ـ يُحب لذاته أو مع الله، بحيث يُعقد عليه الولاء والبراء فيما أصاب وفيما لم يصب، وفي الحق والباطل، فقد اتُّخذ نداً وعُبد من دون الله.

قال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[3].

قال ابن تيمية: لا يجوز أن يُحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده، فكل محبوب في العالَم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته، والرب تعالى هو الذي يجب أن يُحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته ﴿ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾، فإن محبة الشيء لذاته شرك فلا يُحب لذاته إلا الله، فإن ذلك من خصائص إلهيته، فلا يستحق ذلك إلا الله وحده، وكل محبوب سواه لم يحب لأجله فمحبته فاسدة...

فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه،

---

(١) رواه أحمد وغيره، صحيح الجامع الصغير: ٢٥٣٩.

(٢) سواء كان بشراً أم أمراً مادياً كالتراب والوطن، أو معنوياً كالمناهج والدساتير والأحزاب في بعض صورها.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله نداً، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح، فهذا من الشرك الذي يدخل أصحابه في قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[1].

وقال تلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى: فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه[2].

ومن الأدلة كذلك على شرك الحب والطاعة والاتباع، قوله تعالى عن المجرمين وهم في سقر: ﴿قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفي ضلالٍ مبين * إذ نسويكم برب العالمين﴾[3].

فتسوية الرعاع التبع لأسيادهم وزعمائهم المتبوعين برب العالمين كانت في الحب والطاعة والانقياد، وليس في الخلق أو التصرف بنواميس الكون، فهم أعجز من أن يخلقوا ذبابة واحدة فما دون.

---

(١) الفتاوى: ١٠/ ٢٦٧ و ٦٠٧.

(٢) مدارج السالكين: ١/ ٩٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٩٦ ـ ٩٨.

ولكن لما أخصوهم بالحب والطاعة لذواتهم، وبما لا يجوز إلا لله تعالى، حصلت منهم هذه المساواة الظالمة، وهذا الشرك الأكبر الذي أودى بهم إلى العذاب الأكبر، وإلى هذا التلاوم والندم، ولات حين مندم.

قال ابن القيم رحمه الله: ومعلوم أنهم ما سووهم به ـ سبحانه ـ في الخلق، والرزق، والإماتة والإحياء، والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى التراب برب الأرباب؟! وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب؟!

وقال: وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية والتعظيم. . .

ولم تكن تسويتهم لهم بالله في كونهم خلقوا السماوات والأرض أو خلقوهم أو خلقوا آباءهم، وإنما سووهم برب العالمين في الحب لهم كما يحب الله فإن حقيقة العبادة هي الحب والذل[1].

وبعد، فمن يتأمل واقع الأمة في هذا الزمان يجد أن كثيراً من الأشياء تُوالى لذاتها حبث عليها يعقد الولاء والبراء، والناس داخلون سراعاً في عبادتها ـ من هذا الجانب ـ وهم يدرون أو لا يدرون. . .!.

---

(١) بدائع التفسير لابن القيم: ٣/٣٢٨ ـ ٣٢٩.

ـ علامات الحب:

إذ لكل دعوى علامات تصدقها أو تكذبها، ولدعوى الحب علامات ينتفي الحب بانتفائها ويثبت بثبوتها، من أبرزها وأهمها: الاتباع والطاعة والانقياد، فمن كمل اتباعه للنبي ﷺ والتزم بما جاء به من عند ربه كمل حبه لله تعالى، حيث كلما قوي الاتباع قوي الحب، والعكس كذلك كلما قوي الحب قوي الاتباع، فكل منهما دليل على الآخر ولازم له.

ومن ينتفي عنده مطلق الاتباع الظاهر لهدي النبي ﷺ كان ذلك دليلاً على انتفاء مطلق الحب في الباطن لله عز وجل، وهذا لا يكون إلا من كافر زنديق، ومن يدعي الحب من غير اتباع ظاهر فاعلم أنه كذاب، وصريح الآية يبطل زعمه ودعواه، وهو قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[1].

قال ابن كثير: هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله[2].

وقال ابن تيمية: فكل من ادعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب، ليست محبته لله وحده، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك، فإنما يتبع ما يهواه، كدعوى اليهود والنصارى محبة الله، فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب فكانوا يتبعون الرسول، فلما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) التفسير ١/٣٦٦.

أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين[1].

وقال ابن القيم: وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل اتباع رسوله علماً عليها، وشاهداً لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾، فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله[2].

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ هي حب الله ورسوله وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما؛ فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه ألبتة، ولا يهديه الله، قال الله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله

---

(١) الفتاوى ٨/ ٣٦٠.

(٢) قلت: والحب شرط من شروط الإيمان والتوحيد، لا ينتفي إلا عن كافر مشرك.

ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه، وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله، فذلك المقدَّم عنده أحب إليه من الله ورسوله[1].

قلت: ومنه يُعلم كذب الحكام الآثمين الجاثمين على صدر الأمة ومقدراتها ـ ومن يزين أحوالهم في أعين الناس من مشايخ السوء والإرجاء ـ الذين يدعون ـ استرضاء ونفاقاً لشعوبهم ـ حب الله ورسوله، ثم هم في المقابل يحرصون على تنفيذ سياسات الشرق أو الغرب في جميع شؤون حياة الأمة، ويحكِّمون قوانينهم الكافرة في شعوبهم ويقدمونها على حكم الله..!!

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»، وفي رواية: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[2].

---

(١) مدارج السالكين: ١/٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) رواه مسلم.

وانتفاء الإيمان ـ كما تقدم ـ لا يكون إلا لنوع شرك يتضمن نوع عبادة لغير الله تعالى.

قال أبو سليمان الخطابي في شرحه الحديث: فمعناه لا تصدق في حبي حتى تفنى في طاعتي نفسك، وتؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه هلاكك[1].

فتأمل هذا المعنى وواقع الأمة منه، ثم انظر كم الهوّة واسعة بين واقع الناس وبين حقيقة هذا الدين. . .

ـ بيان وتنبيه:

اعلم أن الله تعالى لا يقبل العبادة ـ بمعناها العام الشامل ـ من عبده إلا إذا كانت كلها خالصة لوجهه الكريم سبحانه وتعالى، أما إذا أشرك معه آخر ولو في جزئية أو وجه من أوجه العبادة المتقدم ذكرها أو غيرها كالنذر، والخوف، والرجاء، والتوكل، والاستغاثة، والدعاء، وغيرها من أصناف ومجالات العبادة، فإن الله تعالى لن يقبل منه مطلق عبادته، ما أخلص فيه لله تعالى وما أشرك فيه معه آخر من خلقه، لأن الله تعالى أغنى الأغنياء عن الشرك، فإما أن تكون مطلق العبادة له سبحانه وتعالى وحده، وإما أن تكون إلى غيره من خلقه.

قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم ٢/ ١٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠. تضمّن هذه الآية الشرط لصحة وقبول أي عمل، وهو أن يكون العمل صالحاً مشروعاً مسنوناً عن النبي ﷺ حيث لا =

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: فمن عبد الله ليلا ونهاراً ثم دعا نبياً أو ولياً عند قبره فقد اتخذ إلّهين اثنين، ولم يشهد أن لا إله إلا الله؛ لأن الإله هو المدعو، كما يفعل المشركون اليوم عند قبر الزبير أو عبد القادر أو غيرهم... ومن ذبح لله ألف ضحية ثم ذبح لنبي أو غيره فقد جعل إلّهين اثنين: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾[1] ا. هـ.

وكذلك فإن شركه ـ ولو في جزئية أو وجه واحد من أوجه العبادة ومجالاتها ـ لكفيل بأن يحبط عمله كلياً، حيث لا تنفعه الجوانب الأخرى من العبادة التي أخلص فيها لله تعالى.

قال تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾[3]. حيث لم تعد تنفعهم بقية حسناتهم التي أخلصوا فيها لله.

ولمزيد من التوضيح نضرب هذا المثال: لو أن رجلاً أخلص العبادة لله تعالى في النسك، والركوع والسجود، والصوم، والحج، والزكاة، والجهاد وغيرها من أصناف العبادة، لكنه أشرك معه آخر في عبادة الحب والاتباع، أو الطاعة والتحاكم، أو الخشية، أو الرجاء والتوكل، أو الدعاء والاستغاثة.. فالشرك في واحدة من هذه

= يُتعبد إلا بالمشروع، وأن يكون خالصاً لله تعالى مبرأ من أدنى شرك..

(١) الرسائل الشخصية: ١٦٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٨.

الأمور كفيلة بأن توبق صاحبها في جهنم أبداً، وتحبط عنه جميع أعماله وحسناته الأخرى التي تعبد فيها لله وحده، وتسلبه صفة العبودية لله تعالى.

قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[1].

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه»[2].

وقال ﷺ: «قال الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك»[3].

وقال ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة؛ ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشرك في عمله لله أحداً، فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[4].

ثم أن المشرك ـ ولو كان يعبد الله تعالى في بعض الأوجه والمجالات ـ تنتفي عنه صفة العبودية لله تعالى انتفاء مطلقاً، كما قال تعالى: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾، وهذه آية تنطوي على فوائد بديعة قد نبه عليها ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم «بدائع الفوائد»، فقال في معرض كلامه على «سورة الكافرون»: وأما المسألة الرابعة: وهي أنه لم يأتِ النفي في حقهم ـ أي الكفار ـ إلا باسم

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) رواه أبو داود، والنسائي، صحيح سنن النسائي: ٢٩٤٣.

(٣) رواه ابن ماجة وغيره، صحيح الترغيب: ٣١.

(٤) رواه الترمذي وغيره، صحيح الترغيب: ٣٠.

الفاعل، وفي جهته ﷺ ـ جاء بالفعل تارة، وباسم الفاعل أخرى.

فذلك ـ والله أعلم ـ لحكمة بديعة وهي: أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت. فأتى أولاً بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل في الثاني: أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلاً لي ولا وصفاً لي، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي.

وأما في حقهم فإنما أتى بالإسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي إن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتفٍ عنكم، فليس هذا الوصف ثابتاً لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة، ولم يشرك معه فيها أحداً، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله﴾، أي اعتزلتم معبوديهم إلا الله فإنكم لم تعتزلوه. وكذا قال المشركون عن معبوديهم ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾، فهم كانوا يعبدون معه غيره، فلم ينفِ عنهم الفعل لوقوعه منهم، ونفى الوصف؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة الله موصوفاً بها.

فتأمل هذه النكتة البديعة، كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد لله، وأنه عبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلاً، لم يلتفت إلى غيره، ولم يُشرك به أحداً في عبادته، وأنه إن عبده وأشرك معه غيره، فليس عابداً لله، ولا عبداً له[1].

---

(١) بدائع التفسير: ٥/ ٣٥٠.

فليحذر كل امرىء لنفسه ودينه، فإن الخطب جدُّ خطير، ثم لا يحسبن نفسه بمفازة من العذاب من وحد الله تعالى في النسك والشعائر ثم هو في بقية حياته لا يبالي أن يكون فيها عبداً للطاغوت، فلا يحسبن من كان كذلك أن دينه بقي سالماً له، وأن مسمى الإسلام يشمله، وأنه ناجٍ من عذاب الله، أو أن شفاعة الشافعين ستناله وتطاله، كلاّ . . .

٢ ـ الدين:

لكي يدرك المرء في أي ملة هو وعلى أي دين، لا بد له من أن يعرف معنى كلمة الدين ومدلولاتها، لينظر بعد ذلك على أي دين هو، أهو في دين الله وطاعته وشرعته، أم في دين غيره وطاعته وشرعته.

جاء في لسان العرب معنى كلمة الدين: الدَّيان: من أسماء الله عز وجل، معناه الحكَم القاضي. وسئل بعض السلف عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: كان ديان هذه الأمة بعد نبيها أي قاضيها وحاكمها[1].

والديَّان: القهار، وقيل: الحاكم والقاضي، وهو فعَّال من دان الناسَ أي قهرهم على الطاعة. يقال دنتهم فدانوا أي قهرتهم فأطاعوا..

وفي حديث أبي طالب: قال له عليه السلام: «أريد من قريش كلمة تدين لهم بها العرب» أي تطيعهم وتخضع لهم.

والدِّين: الجزاء والمكافأة، ودِنْتُه بفعله دَينا: جزيته، ويومُ الدين: يوم الجزاء. وفي المثل: كما تدين تُدان، أي كما تُجازِي تُجازَى أي تجازى بفعلك وبحسب ما عملت. ومنه قوله تعالى:

---

(١) إطلاق هذا الإسم على أحد من سلف الأمة، فهو على اعتبار أنه حاكم يحكم بشرع الله تعالى.

﴿مالك يوم الدين﴾، معناه مالك يوم الجزاء والحساب. . .

والدِّين: الطاعة. وقد دِنته ودِنتُ له أي أطعته. .

والدِّين: العادة والشأن، تقول العرب: ما زال ذلك ديني وديدَني أي عادتي. . .

وفي الحديث: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبعَ نفسه هواها وتمنى على الله»، قال أبو عبيد: قوله دان نفسه؛ أي أذلها واستعبدها، وقيل: حاسبها. . .

والدين لله من هذا إنما هو طاعته والتعبد له، ودانه ديناً أي أذله واستعبده. يقال: دِنْتُه فدَان. . .

وفي التنزيل العزيز: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾، قال قتادة: في قضاء الملك.

ودِنْتُه أَدِينُه دَيْناً: سُسْتُه. ودنته: ملَكته. ودُيِّنته أي مُلِّكته. ودَيَّنْتُه القومَ: وليته سياستَهم. ودِنْتُ الرجلَ: حملته على ما يكره.

والدِّين: الحال. قال النضر بن شميل: سألت أعرابياً عن شيء فقال: لو لقيتني على دِين غير هذا لأخبرتك؛ أي على حال غير هذه.

والدِّين: ما يتدين به الرجل. والدين: السلطان. والدين: الورعُ. والدين: القهر. والدين: المعصية. والدين الطاعة.

وفي حديث الخوارج: «يمرقون من الدين مُروقَ السهم من الرميَّة»، قال الخطابي: يعني قوله ﷺ يمرقون من الدين؛ أراد بالدين الطاعة أي أنهم يخرجون من طاعة الإمام المفترضِ الطاعة

وينسلخون منها، والله أعلم.

وفي حديث الحج: «كانت قريش ومن دان بدينهم»، أي اتبعهم في دينهم ووافقهم عليه[1].

وقال ابن تيمية رحمه الله: الدين مصدر، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول، يقال دان فلانٌ، فلاناً، إذا عبده وأطاعه، كما يقال دانه إذا أذله، فالعبد يدين لله أي يعبده ويطيعه، فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العابد المطيع، وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع[2].

يستخلص مما تقدم أن أخص ما يدخل في مسمى الدين ومعناه: الحكم والقضاء والتشريع والعرف، وكذلك الطاعة والاتباع والانقياد والخضوع والذل لسلطة عليا قاهرة.

وعليه: فإن من يدخل في طاعة الله تعالى، وينقاد إلى حكمه وشرعه، ويتبع ما أنزل على نبيه ﷺ فهو داخل في دين الله الإسلام، وهو عابد له سبحانه وتعالى. وبالتالي فإن من يعرض عن طاعة الله تعالى وعن حكمه وشرعه، ومن ثَمَّ يطيع غيره ويحتكم إلى حكم وشرع هذا الغير ـ ولو في جزئية من جزئيات حياته ـ فهو داخل في دينه، وعابد له من دون الله، ولو زعم بلسانه ـ ألف مرة ـ أن دينه الإسلام، وهو من المسلمين!

---

(١) لسان العرب: ١٣/١٦٦.

(٢) الفتاوى: ١٥/١٥٨.

وإليك بعض الأدلة على ذلك:

قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾[1].

قال ابن تيمية: والدين هو الطاعة، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله، وجب القتال حتى يكون الدين كله لله[2].

فانظر كيف فسر الدين بالطاعة، وأن من كان على طاعة غير الله ـ ولو في جانب من جوانب حياته ـ فهو في دين هذا الغير وليس في دين الله، ويتعين قتاله حتى يعطي الطاعة كلها لله وحده.

وقال ابن جرير في التفسير: ﴿ويكون الدين كله لله﴾، يقول: وحتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره، وقد فسر الفتنة بالشرك[3].

وقال تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾[4].

وقال تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وكذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

(٢) الفتاوى: ٢٨/ ٥٤٤.

(٣) ٦/ ٢٤٥.

(٤) سورة النور، الآية: ٢.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

وقال تعالى: ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شُركاؤهم ليردوهم وليلبِسوا عليهم دينهم﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿أم لهم شركاء شَرَعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾[٤]. وغيرها من الآيات.

قال المودودي رحمه الله: المراد بـ (الدين) في جميع هذه الآيات هو القانون والحدود، والشرع والطريقة والنظام الفكري والعملي الذي يتقيد به الإنسان، فإن كانت السلطة التي يستند إليها المرء لاتباعه قانوناً من القوانين، أو نظاماً من النظم سلطة الله تعالى، فالمرء لا شك في دين الله عز وجل، وأما إن كانت تلك السلطة سلطة ملك من الملوك، فالمرء في دين الملك، وإن كانت سلطة المشايخ والقسوس فهو في دينهم. وكذلك إن كانت تلك السلطة سلطة العائلة أو العشيرة، أو جماهير الأمة، فالمرء لا جرم في دين هؤلاء[٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدعُ ربه إني

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٧.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٢١.
(٤) سورة الكافرون، الآية: ٦.
(٥) الكتاب القيم المصطلحات الأربعة في القرآن، ص ١٢٥.

أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾[1].

قال رحمه الله: وبملاحظة جميع ما ورد في القرآن من تفاصيل القصة موسى عليه السلام وفرعون، لا يبقى من شك في أن كلمة (الدين) لم ترد في تلك الآيات بمعنى النحلة والديانة فحسب، أريد بها الدولة ونظام المدينة أيضاً. فكان مما يخشاه فرعون ويعلنه: أنه إن نجح موسى عليه السلام في دعوته، فإن الدولة ستزول وإن نظام الحياة القائم على حاكمية الفراعنة والقوانين والتقاليد الرائجة سيقتلع من أصله[2].

ومنه يعلم أن هذه الأنظمة والقوانين الوضعية السائدة والحاكمة في أمصار المسلمين، هي دين وإن لم يسمها أهلها بذلك، ومن دخل فيها أو تابع الطغاة عليها، أو رضي بها فهو في غير دين الله ـ وهو في دين الطاغوت ـ وإن زعم الإسلام وتسمى بأسماء المسلمين.

ثم أن كل منهاج أو نظام أو دستور أو قانون لا يقوم على أساس الإسلام والطاعة لله عز وجل، والمتابعة لرسوله ﷺ، فهو دين باطل وطاغوت يتعين البراء منه والكفر به.

كما قال تعالى في سورة الكافرون: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد... لكم دينكم ولي دين﴾.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٢) المصدر السابق.

وقال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[2].

ومنه يعلم كذلك أن ما من امرء في الوجود إلا وله دين يدين به ومعبود يعبده، حتى ذاك الملحد الذي يكفر بوجود الله تعالى وبالأديان السماوية وغيرها، له دين يدين به وينهجه في حياته، وله آلهته الخاصة به التي تشرع له فيتبعها ويعبدها من دون الله[3]، ففر ـ بزعم التحرر من عقدة الأديان ـ من الدين الحق إلى الدين الباطل، ومن العبودية الحقة التي توافق الفطرة البشرية إلى العبودية الباطلة الدخيلة..!

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 19.

(2) سورة آل عمران، الآية: 85.

(3) مثال ذلك: الشيوعي الذي يدعي الكفر بجميع الأديان، فدينه الشيوعية ومبادئها ومعتقداتها، والفلسفة التي يتبناها عن الكون والحياة والنفس البشرية، ومن آلهته الكثيرة التي يعبدها ـ في الحب والطاعة والانقياد والخضوع ـ منظري الحزب، كماركس ولينين واستالين وغيرهم من الطغاة، وكذلك حال من ينتمي إلى حزب علماني أو فكر وضعي يقوم على أسس محاربة دين الله تعالى.

٣ ـ الإله:

الإله: الله عز وجل، وكل ما اتخذ من دونه معبوداً إلهٌ عند متخذه، والجمع آلِهَة، والآلهة: الأصنام، سموا بذلك لاعتقادهم أن العبادة تحقُّ لها، وأسماؤهم تتبع اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه. .

والإلاهةُ والألوهيّةُ والأُلوهة: العبادة. . .

والله: أصله إلاهٌ، على فِعال بمعنى مفعول، لأنه مألوه أي معبود. .

وقيل في اسم الباري سبحانه: إنه مأخوذ من ألِهَ يألَه إذا تحير، لأن العقول تأله في عظمته. وألِهَ يأله ألَهاً أي تحير، وأصله ولِهَ يَوْلَهُ ولهاً. وقد ألِهتُ على فلان أي اشتد جزعي عليه، مثل ولِهتُ، وقيل: هو مأخوذ من ألِهَ يألَهُ إلى كذا أي لجأ إليه لأنه سبحانه المفزَعُ الذي يُلجأ إليه في كل أمر. . .

والتألُّهُ: التنسُّك والتعبُّد. والتأليه: التعبيد[1].

قال ابن رجب رحمه الله: الإله هو الذي يطاع فلا يُعصى هيبة له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاء وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من

---

(١) انظر لسان العرب: ١٣/ ٤٦٧.

هذه الأمور التي هي من خصائص الإلّهية، كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قوله: «لا إله إلا الله»، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك[1].

ومنه يعلم أن المعبود ـ ولو في جزئية من جزئيات العبادة ـ هو إله ومألوه بالنسبة لعابده، ومن دخل في عبادة غير الله عز وجل فيما يعتبر من خصائص الإلّهية، فقد أقر لهذا الغير بالإلهية، واتخذه إلهاً مع الله أو من دونه.

وحتى تتعرى لنا الآلهة ـ المزعومة الهزيلة ـ التي فتنت العباد عن دينهم، وفرضت نفسها على البلاد والعباد كآلهة يجب أن تعبد وتطاع، لا بد من أن نقف على بعض خصائص إلهية الله تعالى التي لا يجوز لأحد من خلقه أن يشركه فيها، لنرى بعد ذلك كم هم الآلهة التي تدعي في زماننا هذه الخصائص لنفسها، ثم كيف هم يأطرون الناس أطراً ليعترفوا لهم بهذه الخصائص، وأنها حق لهم من دون الله تعالى!!

ـ من خصائص إلهية الله تعالى:

أولاً ـ من خصائص الإلّهية، أن الحكم لله تعالى وحده، فله الخلق والأمر.

قال تعالى: ﴿إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾[2].

---

(١) قرة عيون الموحدين، ص ٢٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

وقال تعالى: ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ولا يُشرك في حكمه أحداً﴾[3]. وغيرها كثير من الآيات التي تدل على هذا المعنى.

وبالتالي فإن من يدعي من الخلق ـ وما أكثرهم في زماننا ـ هذه الخاصية لنفسه، خاصية الحكم التي هي وقف لله تعالى، فقد ادعى الإلهية لنفسه، ومن أقر له بهذه الخاصية فقد أقر له بالإلهية، وتأليه من دون الله تعالى.

ثانياً ـ خاصية التشريع، والتحليل والتحريم، والتحسين والتقبيح حيث يعتبر ذلك من أخص خصائص الإلٓهية التي تفرد الله سبحانه وتعالى بها.

وبالتالي فإن من يدعي من الخلق ـ وما أكثرهم في زماننا[4] ـ هذه الخاصية لنفسه، خاصية التشريع والتحليل والتحريم، فقد ادعى الإلٓهية وجعل من نفسه نداً لله تعالى، ومن أقر له بهذه الخاصية أو تابعه عليها فقد أقر له بالإلٓهية ورضيها له، وتأليه من دون الله تعالى.

قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٦.

(٤) ستعرفهم عند الحديث عن أنواع الطواغيت التي تُعبد من دون الله في زماننا.

والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[1].

قد تقدم تفسير الآية، وقد نقلنا أقوال أئمة العلم والتفسير في المراد من الربوبية والإلّهية التي ادعوها الأحبار والرهبان لأنفسهم، حيث كانت في تصدرهم لخاصية التحليل والتحريم من غير سلطان من الله تعالى. وكانت عبادة التبع لهم بمجرد الإقرار لهم بهذا الحق ومتابعتهم عليه.

وقال تعالى: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل ءآلله أذِنَ لكم أم على الله تفترون﴾[3]، ﴿ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾[4].

وقد روي أن أعرابياً من بني تميم قال للنبي ﷺ: إن حمدي زين، وذمي شين! قال له: «ذاك الله»[5].

أي ليس ذلك من خصوصياتك ولا من خصوصيات البشر كلهم ولو اجتمعوا في صعيد واحد، وإنما هو من خصوصيات الله تعالى

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢١.
(٣) سورة يونس، الآية: ٥٩.
(٤) سورة النحل، الآية: ١١٦.
(٥) الفتاوى لابن تيمية: ٢٨/ ١٦٤.

وحده. فإن ما تطلق عليه حكم الزين والتحسين قد يكون عند الله شين وقبيح، وما تطلق عليه حكم الشين قد يكون عند الله زين وحسن، فالحكم على الأشياء لله تعالى وحده وليس لأحد من خلقه.

ثالثاً ـ من خصائص الإلّهية كذلك أن الله تعالى يحكم ما يريد من غير أن يعقب عليه أحد أو يقدم بين يديه بقول أو فهم أو اعتراض، فله تعالى الأمر، وعلى رسولنا البلاغ، وعلينا الرضى والتسليم.

قال تعالى: ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾[1].

وقال تعالى: ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين[4] يدي الله

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٤) التقديم بين يدي النبي ﷺ هو تقديم بين يدي الله تعالى، لأن النبي ﷺ يبلغ عن ربه ولا ينطق إلا بحق ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾، وصفة التقديم على النبي بعد وفاته ﷺ تكون برد سنته الثابتة الصحيحة بأقوال الرجال وأفهامهم، وسوالف أهل البادية وعاداتهم وقوانينهم وغير ذلك.

ورسوله﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾[2].
وغيرها كثير من الآيات التي تدل على هذا المعنى.

وبالتالي فإن من يدعي هذه الخاصية لنفسه، فيقول: أنا أحكم ما أريد من غير معقب، وأنا فوق أن يقدم بين يدي بقول أو فهم أو اعتراض، فقد ادعى الإلهية وجعل من نفسه نداً لله تعالى، ومثله مثل فرعون عندما قال: ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾[3].

وكذلك فمن يقر له بهذه الخاصية لا شك فإنه يكون قد أقر له بالإلّهية، واتخذه إلّهاً معبوداً من دون الله تعالى.

رابعاً ـ ومن خصائص الإلّهية التي تفرد الله تعالى بها، أنه تعالى لا يُسأل عما يفعل وما سواه فإنه يُسأل.

كما قال تعالى: ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾[4].

وبالتالي فإن من يدعي هذه الخاصية لنفسه، حيث يقول: أنه لا يُسأل عما يفعل أو أنه فوق المساءلة، فقد ادعى الإلّهية لنفسه وجعل من نفسه نداً ومثيلاً لله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿ليس كمثله شيء

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١.
(٢) سورة النور، الآية: ٥.
(٣) سورة غافر، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

وهو السميع البصير﴾[1].

وكذلك فإن من يقر له بهذه الخاصية فقد رضي له الإلهية وأن يكون له معبوداً من دون الله تعالى.

خامساً ـ ومن خصائصه تعالى أنه المحبوب لذاته، وما سواه فيحب له سبحانه وتعالى، وقد تقدم ذكر الأدلة على هذه الخاصية. . .

وبالتالي فإن أي مخلوق يدعي هذه الخاصية لنفسه، وأن له الحق في أن يُحب لذاته؛ بحيث يُوالى ويعادى عليه، فقد ادعى الإلّهية وجعل من نفسه مثلاً ونداً لله تعالى. وأيما مخلوق يقر له بهذه الخاصية فقد اتخذه إلهاً، ورضي أن يكون معبوده من دون الله تعالى.

سادساً ـ وكذلك من خصائصه سبحانه وتعالى أنه المطاع لذاته، وما سواه يُطاع له وفيه، حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وقد تقدمت الأدلة على أن من يدعي الطاعة لذاته فإنه يدعي خاصية هي من خصائص الله تعالى وحده، ومن يعترف له بذلك فإنه يعترف له بالإلهية والندية لله تعالى.

سابعاً ـ ومن خصائصه سبحانه وتعالى أنه النافع الضار، بيده وحده الضر والنفع، وهو يُجير ولا يجار عليه.

قال تعالى: ﴿ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين. وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا

---

(1) سورة الشورى، الآية: 11.

هو وإن يردك بخيرٍ فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[3].

وقال تعالى: ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً﴾[4]، ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله﴾[5]. وغيرها كثير من الآيات التي تدل على هذا المعنى.

وفي الحديث، عن ابن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ، فقال: «يا فتى ألا أهب لك، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنه قد جف القلم بما هو كائن، واعلم بأن الخلائق لو أرادوك بشيء لم يردك الله به لم يقدروا عليه، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»[6].

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧١.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٤) سورة الرعد، الآية: ١٦.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٦) رواه ابن أبي عاصم في السنة، وصححه الشيخ ناصر في التخريج.

وبالتالي فأيما امرء يتوجه إلى أي مخلوق ـ سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً صالحاً أو غير ذلك ـ بالدعاء والاستغاثة أو الطلب والتوكل، يرجو منه جلب المنافع ودفع المضار، فإنه كافر مشرك، وتحققت عبوديته لغير الله تعالى.

وهذا المشرك لو سألته عن سبب عبادته ودعائه لغير الله تعالى لأجابك كما أجاب مشركي العرب النبيّ ﷺ من قبل: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[1]. ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[2].

قال ابن تيمية: فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسد الفاقات: فهو كافر بإجماع المسلمين.

قال تعالى: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾، فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر[3].

خلاصة ما تقدم:

نقول: إن لله تعالى خصائص وصفات لا يجوز لأحد من خلقه أن

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٣) الفتاوى: ١/ ١٢٤.

يشركه فيها، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1].

وأنه تعالى هو الإله المعبود بحق الذي يجب أن تصرف إليه وحده جميع أنواع العبادة ومجالاتها: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له﴾[2].

وبالتالي إن أي مخلوق ـ أياً كانت صفته ومكانته ـ يدعي خصائص وصفات هي من خصوصيات وصفات الله تعالى وحده، فإنه قد ادعى الإلهية، وجعل من نفسه نداً وشريكاً لله تعالى في خصائصه.

وكذلك فإن أي امرء يقر لذلك المدعي الإلهية على ما ادعاه ويتابعه عليه، فإنه قد رضيه إلهاً ومعبوداً له من دون الله تعالى.

فإذا عرفت ذلك أصبح من السهل عليك أن تعرف معنى الطاغوت ـ موضوع بحثنا ـ وأنواعه وأصنافه، وما يجب عليك نحوه.. فإلى ذلك.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١. أقول: من دلائل هذه الآية الكريمة، الاستدلال على بطلان من يدعي أو يتشبه بخصائص الإلهية التي هي من خصوصيات الله وحده، ولكن لسوء في التلقي فإن الآية حصرت في الرد على المجسمة فقط!!

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

٤ ـ الطاغوت:

ـ التحقيق اللغوي: طغَى يطغَى طغْياً ويطغُو طغياناً: جاوز القَدْرَ وارتفعَ وغَلا في الكفر. وكل مجاوزٍ حدَّه في العصيان طاغٍ.

وطغى الماء والبحر: ارتفع وعلا على كلِّ شيء فاخترقه. وفي التنزيل العزيز: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾.

وطغى البحر: هاجت أمواجه، وكل شيء جاوز القَدْرَ فقد طغى كما طغى الماء على قوم نوح، وكما طغت الصيحة على ثمود.

والطاغوت: يقع على الواحد، والجمع، والمذكر، والمؤنث، وزنه فعَلُوت إنما هو طغيوت، قدمت الياء قبل الغين وهي مفتوحة وقبلها فتحة، فقلبت ألفاً، فصار طاغوت.

وجمع الطاغوت: طواغيت، وفي الحديث: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغي، وفي الآخر: ولا بالطواغيت»، فالطواغي جمع طاغية، وهي ما كانوا يعبدونه من الأصنام وغيرها؛ ومنه: هذه طاغية دَوْسٍ وخثعَم أي صنمهم ومعبدهم، ويجوز أن يكون أراد بالطواغي من طغَى في الكفر وجاوز الحدَّ، وهم عظماؤهم وكبراؤهم[1].

---

(١) انظر لسان العرب: ١٥/٧.

أقوال أهل العلم في الطاغوت:

١ ـ ابن جرير الطبري: والصواب من القول عندي في «الطاغوت»، أنه كل ذي طغيان على الله، فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبدَه، وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء.

وأرى أصل «الطاغوت»، الطغووت من قول القائل: طغا فلان يطغو، إذا عدا قدره فتجاوز حده[١].

٢ ـ ابن تيمية: الطاغوت فعلوت من الطغيان، والطغيان: مجاوزة الحد وهو الظلم والبغي. فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارهاً لذلك[٢] طاغوت، ولهذا سمى النبي ﷺ الأصنام طواغيت في الحديث الصحيح لما قال: «ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت».

والمطاع في معصية الله، والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق سواء كان مقبولاً خبره المخالف لكتاب الله، أو مطاعاً أمره المخالف لأمر الله هو طاغوت، ولهذا سمى من تحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت، وسمى فرعون وعاداً طغاة[٣]...

٣ ـ ابن القيم: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو

---

(١) تفسير الطبري: ٣/ ٢١.
(٢) بهذا الاستثناء والقيد يخرج الأنبياء والصالحين ـ الذين يُعبدون من دون الله، أو مع الله، وهم من ذلك مبرأون وله كارهون ـ مسمى الطاغوت، حيث لا يجوز أن يجري عليهم اسم الطاغوت، ولكن يبقى وجوب الكفر بعبادتهم وبمن يعبدهم.
(٣) الفتاوى: ٢٨/ ٢٠٠.

متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله؛ فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته[1].

قلت: هذا حال الناس في عهد ابن القيم ـ رحمه الله ـ قبل أكثر من سبعمائة عام، فكيف لو رأى ابن القيم الناسَ في زماننا، فماذا تراه يقول..؟!

٤ ـ القرطبي: الطاغوت الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال[2].

٥ ـ النووي: قال الليث، وأبو عبيدة، والكسائي، وجماهير أهل اللغة: الطاغوت كل ما عبد من دون الله تعالى[3].

٦ ـ محمد بن عبد الوهاب: الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت[4].

---

(١) أعلام الموقعين: ١/ ٥٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢٨٢.
(٣) شرح صحيح مسلم: ٣/ ١٨.
(٤) مجموعة التوحيد، ص ٩.

٧ ـ الشنقيطي: والتحقيق أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت، والحظ الأكبر من ذلك للشيطان، كما قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾[١].

٨ ـ عبد الله بن عبد الرحمن، بابطين: الطاغوت يشمل كل معبود من دون الله، وكل رأس في الضلال يدعو إلى الباطل ويحسنه، ويشمل أيضاً: كل من نصبه الناس للحكم بينهم بأحكام الجاهلية المضادة لحكم الله ورسوله، ويشمل أيضاً: الكاهن، والساحر، وسدنة الأوثان الداعين إلى عبادة المقبورين وغيرهم، بما يكذبون من الحكايات المضلة للجهال.. وأصل هذه الأنواع كلها وأعظمها: الشيطان، فهو الطاغوت الأكبر، والله سبحانه وتعالى أعلم[٢].

٩ ـ المودودي: المراد من الطاغوت كل فرد أو طائفة أو إدارة تبغي وتتمرد على الله، وتجاوز حدود العبودية وتدعي لنفسها الألوهية والربوبية.

وقال: ومعنى الطاغوت في اصطلاح القرآن، كل دولة أو سلطة، وكل إمامة أو قيادة تبغي على الله وتتمرد، ثم تنفذ حكمها في أرضه وتحمل عباده على طاعتها بالإكراه أو بالإغراء أو بالتعليم الفاسد. فاستسلام المرء لمثل تلك السلطة وتلك الإمامة والزعامة، وتعبُّده لها ثم طاعته إياها، كل ذلك منه عبادة ـ ولا شك ـ للطاغوت[٣].

---

(١) أضواء البيان: ١/٢٢٨.

(٢) الدرر السنية: ٢/١٠٣.

(٣) المصطلحات الأربعة، ص ٧٩، و١٠١.

١٠ ـ سيد قطب: والطاغوت صيغة من الطغيان، تفيد كل ما يطغى على الوعي ويجور على الحق، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله، ومن الشريعة التي يسنها الله، ومنه كل منهج غير مستمد من الله، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يستمد من الله.

إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله، وكل عدوان يتجاوز الحق، والعدوان على سلطان الله وألوهيته، وحاكميته هو أشنع العدوان، وأشده طغياناً، وأدخله في معنى الطاغوت لفظاً ومعنى. . وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان، ولكن اتبعوا شرعهم فسماهم الله عباداً لهم، وسماهم مشركين ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾، فهم عبدوا الطاغوت أي السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها، وهم لم يعبدوها بمعنى السجود والركوع، ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع والطاعة، وهي عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله[1].

١١ ـ محمد حامد الفقي: والذي يستخلص من كلام السلف رضي الله عنهم: أن الطاغوت كل ما صرف العبد وصده عن عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله. سواء في ذلك الشيطان من الجن والشيطان من الإنس، والأشجار والأحجار وغيرها. ويدخل في ذلك بلا شك الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به في الدماء والفروج

---

(١) انظر الظلال: ١/ ٢٩٢، وطريق الدعوة في ظلال القرآن. ١/ ٣٠.

والأموال، وليبطل بها شرائع الله من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك، مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذيها. والقوانين نفسها طواغيت، وواضعوها ومروجوها طواغيت، وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشري ليصرف عن الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ إما قصداً أو عن غير قصد من واضعه، فهو طاغوت[1].

خلاصة ما تقدم نقول: أن الطاغوت هو كل ما عبد من دون الله ـ وهو راضٍ بذلك ـ ولو في جزئية أو مجال من مجالات العبادة، فمن يُعبد من جهة الحب والموالاة والمعاداة فهو طاغوت، ومن يُعبد من جهة الطاعة والاتباع والتحاكم فهو طاغوت، ومن يُعبد من جهة الدعاء والخشية والنذر والنسك فهو طاغوت، ومن يُعبد من جهة الإقرار له بخصائص الإلّهية أو بعضها فهو طاغوت.

ومما يندرج كذلك في مسمى الطاغوت، الشرائع والقوانين، والدساتير والمناهج المضاهية لشرع الله. وكذلك كل إمام في الكفر والفساد والإضلال فهو طاغوت.

مسألة ـ هل كل طاغوت كافر؟!

عندما يثار مثل هذا السؤال، لا شك أنه لا يراد منه الحجر أو الشجر التي تعبد من دون الله ـ كمن يفعل ممن يريدون أن يميعوا قضية الكفر بالطاغوت ـ وإنما يُراد به شياطين الإنس والجن التي تعبد من دون الله تعالى.

---

(١) حاشية كتاب فتح المجيد، ص ٢٨٢، ط دار الكتب العلمية.

وعليه فإننا نقول: كل ما عبد من دون الله ـ وهو راضٍ بذلك ـ ولو في مجال من مجالات العبادة فهو كافر، بل إمام من أئمة الكفر والطغيان يجب الكفر به وتكفيره، ولا يتوقف في تكفيره أو يشك في كفره إلا كل كافر مثله، أعمى البصر والبصيرة[1].

ثم أن الكتاب والسنة لم يرد فيهما ذكر للطاغوت إلا على النحو الذي يدل على كفره كفراً بواحاً، مما يدل أن الأصل في استخدام هذه الكلمة اطلاقها على طواغيت اجتمعت فيهم صفات الكفر البواح.

ولكن أحياناً يطلق اسم الطاغوت على أعيان، ويراد منه معناه اللغوي وهو مجاوزة الحد والتعدي ـ وليس كل ظالم مجاوز للحد كافر ـ كإطلاقات بعض السلف على أئمة الجور من حكام بني أمية والعباسيين كالحجاج وغيره، فإنهم أطلقوا عليه اسم الطاغوت وصفة الطغيان، ومع ذلك كثير منهم توقف عن تكفيره، والله تعالى أعلم.

ـ طواغيت تُعبد من دون الله تعالى:

بعد التعرف على معنى الطاغوت، وصفة من يُجرى عليه مسمى الطاغوت، يحسن بنا أن نتعرف على الطواغيت ـ بشيء من التفصيل ـ التي تعبد من دون الله في زماننا، لنحذرها ونقوم بالواجب الشرعي نحوها، ونبدأ برأس الطواغيت وزعيمهم الأكبر.

---

(١) انظر قاعدة «من لم يكفر الكافر...» من كتابنا قواعد في التكفير.

١ ـ الشيطان:

ذلكم هو إبليس اللعين، الذي آل على نفسه أن يفتن العباد عن عبادة الله تعالى إلى عبادة ما سواه.

كما قال تعالى عنه: ﴿قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾[١].

وقال تعالى: ﴿قال ربِّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين﴾[٢]. فهؤلاء ليس له عليهم سلطان.

وهذه صفة يتصفها كثير من شياطين الإنس الذين جندوا أنفسهم ووطدوها على تحمل تبعات الانتصار للشرك والكفر والضلال.

كما قال تعالى: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾[٣].

فإن قيل: قد تقرر أن الطاغوت هو الذي يُعبد من دون الله، فأين تكمن عبادة الناس للشيطان[٤]؟

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦، ١٧.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٢١٧.

(٤) توجد بعض الطوائف في شمال شرق سوريا وغيرها، يعبدون الشيطان من جهة الخوف والرجاء، حيث يعتبرونه إله الضرر والشر، فيعبدونه ويخشونه=

نقول: إن عبادته تأتي من جهة طاعته واتباعه على الكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريدا﴾[2]. وقال عن إبراهيم: ﴿يا أبتِ لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا﴾[3].

٢ ـ الهوى:

الهوى يكون بمعنى: الميل، والحب، والعشق، ويكون في مداخل الخير والشر، ويكون في معنى إرادة الشيء وتمنيه، وهوى النفس: إرادتها، قال تعالى: ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ معناه: نهاها عن شهوتها وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل.

ومتى تكلِّمَ بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً، حتى يُنعتَ بما يُخرج معناه كقولهم: هوىً حسن، وهوىً موافق للصواب[4].

وكون الهوى طاغوتاً ومعبوداً في بعض صوره وحالاته، هو لاتباعه وطاعته في معصية الله، وجعله مصدر الحكم على الأشياء،

حتى لا ينزل بهم ضراً!!

وقد حدثني أحد المدرسين كان يدرس في مناطقهم، أنه مرة تعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم، فقاموا عليه، وهددوه بالضرب والقتل إن عاد إلى مثلها..!

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٧.

(٣) سورة مريم، الآية: ٢٨.

(٤) انظر لسان العرب، أقول: لم يرد ذكر الهوى في القرآن الكريم إلا بصيغة الذم.

فما يراه هواه حقاً هو الحق، وما يراه باطلاً هو الباطل عنده، وإن كان ذلك مخالفاً لشرع الله تعالى.

وكذلك عقد الموالاة والمعاداة في الهوى وعليه، حيث يوالي ما يهواه لا ما يجب عليه أن يواليه، ويعادي من يهوى معاداته وإن كان الواجب الشرعي يقضي بموالاته.

فالهوى في هذه الصورة إلّهاً معبوداً من دون الله، وصاحبه في الحقيقة يتأله ما يهواه، وقد جعل منه نداً لله تعالى.

كما قال تعالى: ﴿ولا تُطع من أغفلنا قلبَهُ عن ذكرنا واتبعَ هواه وكان أمره فرطا﴾[1]، وقال: ﴿أرأيتَ من اتخذَ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا﴾[2]. وقال: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواهُ وأضلَّه الله على علم﴾[3].

قال ابن تيمية: فمن كان يعبد ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه، فما هويه إلهه، فهو لا يتأله من يستحق التأله، بل يتأله ما يهواه، وهذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لآلهتهم، ومحبة عباد العجل له، وهذه محبة مع الله لا محبة لله، وهذه محبة أهل الشرك. والنفوس قد تدعي محبة الله، وتكون في نفس الأمر محبة شرك تحب ما تهواه وقد أشركته في الحب مع الله[4].

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٤) الفتاوى: ٨/٣٥٩.

٣ ـ الساحر:

هو طاغوت لكونه يدّعي قدرته على التأثير في الأشياء، فينزل الضر فيمن يشاء، ويرفع الضر عمن يشاء، وهذه من أخص خصوصيات الله تعالى كما تقدم،

ومع ذلك فكثير من الناس ـ لجهلهم بالتوحيد وحق الله عليهم ـ يعبدون السحرة من جهة الاعتراف لهم بمقدرتهم على التأثير في الأشياء نفعاً وضراً، ومن جهة الخوف والخشية والرجاء، حيث يرجونهم في أن يفعلوا لهم كذا وكذا، أو أن يرفعوا عن مريض ما أصابه من ضر وغير ذلك!

لذا فإن الساحر طاغوت كافر، حده في الإسلام ضربة بسيف على العنق تفصل رأسه عن جسده.

أما كونه كافر، فهو لقوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾[١].

قال القرطبي في التفسير: قوله تعالى: ﴿وما كفر سليمان﴾، تبرئة من الله لسليمان، ولم يتقدم في الآية أن أحداً نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لما كان السحر كفراً صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر، ثم قال: ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ فأثبت

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

كفرهم بتعليم السحر.

وقال: فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً[1] يقتل ولا يُستتاب ولا تقبل توبته؛ لأنه أمر يستسرُّ به كالزنديق، ولأن الله تعالى سمى السحر كفراً بقوله: ﴿وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾، وهو قول أحمد بن حنبل، وأبي ثور، وإسحاق، والشافعي، وأبي حنيفة، ورُوي قتل الساحر عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وأبي موسى، وقيس بن سعد، وعن سبعة من التابعين.

وروي عن الشافعي: لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره، ويقول تعمدت القتل، وإن قال لم أتعمده لم يُقتل، وكانت فيه الدية كقتل الخطأ، وإن أضر به أدب على قدر الضرر!

قال ابن العربي: وهذا باطل من وجهين:

أحدهما: أنه لم يعلم السحر، وحقيقته أنه كلام مؤلف يُعظم به غير الله تعالى، وتنسب إليه المقادير والكائنات.

---

(١) قلت: لا يتأتى السحر إلا بالشرك والكفر؛ من استغاثة بشياطين الجن وتعظيمهم ورجائهم، وزعم التأثير بالأشياء، والإتيان بما يعتبر من خوارق العادة وغير ذلك، ومن فعل السحرة الاستهانة بكلام الله تعالى استرضاء لشياطينهم، قال ابن تيمية عنهم في الفتاوى ١٩/ ٣٥: كثير من هذه الأمور يكتبون فيها كلام الله بالنجاسة - وقد يقلبون حروف كلام الله عز وجل - إما دم وإما غيره، وإما بغير نجاسة، أو يكتبون غير ذلك بما يرضاه الشيطان، أو يتكلمون بذلك، فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين أعانتهم على بعض أغراضهم اهـ. فأي كفر بعد هذا الكفر..

الثاني: أن الله سبحانه قد صرح في كتابه بأنه كفر فقال: ﴿وما كفر سليمان﴾، بقول السحر، ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ به وبتعليمه. وهاروت وماروت يقولان: ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ وهذا تأكيد للبيان[1].

وقد اعتبر الشيخ محمد بن عبد الوهاب من جملة نواقض الإيمان التي تخرج صاحبها من الملة: السحر، والعمل به[2]. وقد تابعه على ذلك أبناؤه وأحفاده وغيرهم من علماء التوحيد في الجزيرة العربية.

ونقل الشيخ عن صاحب «الإقناع» قوله: ويحرم تعلم السحر وتعليمه وفعله، ويكفر بتعلمه وفعله، سواء اعتقد تحريمه أو إباحته، فتأمل هذا الكلام[3].

٤ ـ الكاهن:

وهو الذي يتكهن علم الغيب، فيدعي علم الغيب وما سيكون، وهذا من أخص خصائص الله تعالى، حيث لا يعلم الغيب إلا هو سبحانه وتعالى.

كما قال تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢/٤٣، ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) الرسائل الشخصية، ص ٦٩.

(٣) الرسائل الشخصية، ص ٢١٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

وقال: ﴿فقل إنما الغيب لله﴾[1]. وقال: ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله﴾[2]. وقال عن نبينا ﷺ: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾[3].

لذا فإن أي مخلوق يدعي خاصية علم الغيب وما سيكون، فهو كاهن وطاغوت، ورأس في الطغيان. والمقر له بذلك يكون قد أقر له بخصائص الإلَهية، واتخذه إلهاً من دون الله.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: الطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة، منهم: الذي يدعي علم الغيب من دون الله، والدليل قوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً﴾[4].

ومما يدخل في مسمى الكهانة والكاهن، ضارب الفنجان، والكف، والرمل، وكذلك علم الأبراج والكواكب الذي تُصدَّر به الصحف، ووسائل الإعلام المرئية وغيرها، فكل ذلك من الطغيان والكهانة الذي يعتبر ضرب في الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

ونحن إذ نبين هذا النوع من الطغيان، فإننا نحذر العباد ـ ومن يحرص على سلامة دينه ـ من الاقتراب من الكهنة ـ بأنواعهم المختلفة ـ أو تجربتهم، ولو كان ذلك على وجه اللعب والمزاح، فإن دين الله ـ يجب أن يؤخذ بجد ـ لا يجوز أن يكون عرضة للعب

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٠.
(٢) سورة النمل، الآية: ٦٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٤) مجموعة التوحيد، ص ٩.

والتسلية والمزاح..!

فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منا من تطيَّرَ ولا من تُطيِّرَ له، أو تكَهَّن أو تُكهِّن له، أو تَسحَّر أو تُسحِّرَ له»(١).

وقال ﷺ: «من أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد»(٢).

وقال ﷺ: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد بريء مما أنزل على محمد»(٣). نعوذ بالله من الكفر والخذلان، بعد أن أعزنا الله بالإيمان.

٥ ـ الحاكم بغير ما أنزل الله:

الحاكم بغير ما أنزل الله رأس في الطغيان والجور، لمجاوزته حكم الله تعالى وإعراضه عنه، واستبداله بحكم وشرائع الجاهلية الأخرى.

قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾(٤). وقال: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾(٥). وقال: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله

---

(١) رواه الطبراني وغيره، صحيح الجامع الصغير: «٥٤٣٥».
(٢) رواه أحمد والحاكم، صحيح الجامع: «٥٩٣٩».
(٣) رواه أحمد وغيره، صحيح الجامع: «٥٩٤٢».
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

حكماً لقوم يوقنون﴾[1]. وكل حكم غير حكم الله فهو حكم الجاهلية، والآية تشمله وتطاله، وكل من يبغي حكماً غير حكم الله فهو ممن يبغي حكم الجاهلية.

وممن ينالهم مسمى الطاغوت وصفته لعدم حكمهم بما أنزل الله، قضاة المحاكم الوضعية، والمحامين العاملين فيها الذين يحكمون في الناس بشرائع الطاغوت، ونحوهم مشايخ العشائر والقبائل الذين يحكمون بالعادات السائدة، وبالأعراف والأهواء، وسواليفهم الباطلة، ويقدمونها على شرع الله تعالى.

فإن قيل: تُقرر في التعريف أن الطاغوت هو الذي يُعبد من دون الله، فأين تكمن عبادة الحاكم بغير ما أنزل الله حتى سُمي طاغوتاً؟

والجواب على ذلك من أوجه:

منها، أن الله تعالى قد سمى الحاكم بغير ما أنزل الله طاغوتاً، في قوله تعالى: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾[2].

ولا شك أن الطاغوت الوارد ذكره في الآية يشمل الحاكم بغير ما أنزل الله، ولربما يكون المعني بالدرجة الأولى من صفة الطغيان ومسمى الطاغوت الواردة في الآية. وقد أثر عن بعض السلف أن المراد بالطاغوت الوارد في هذه الآية هو كعب بن الأشرف اليهودي، لكونه يحكم بغير ما أنزل الله...

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٠.

قال المودودي: فالمراد بالطاغوت في هذه الآية صراحة الحاكم الذي يحكم بقوانين أخرى غير قانون الله وشرعه، وكذلك نظام الحاكم الذي لا يطيع سلطة الله العليا ويستند إلى كتاب آخر غير كتاب الله[1].

ومنها، أن الحاكم بغير ما أنزل الله يُعبد من جهة التحاكم والطاعة من قبل المتحاكِم إليه، وقد تقدم أن التحاكم عبادة لا تُصرف إلا لله تعالى، فمن تحاكم إلى غيره فهو متأله لهذا الغير وعابد له.

ومنها، أن الذي يحكم بغير ما أنزل الله، يُخرج أولياءه ومتابعيه الراضين به، من نور الوحي وعدل الإسلام وهو الحكم بما أنزل الله، إلى ظلمات الشرك والكفر والجاهلية وهو الحكم بغير ما أنزل الله، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[2].

ومنه يعلم أن الحاكم بغير ما أنزل الله يُجرى عليه مسمى الطاغوت؛ اسماً وصفةً ومعنى، ولا محالة من ذلك.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: الطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة، منهم: الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[3].

---

(١) الحكومة الإسلامية.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٣) مجموعة التوحيد، ص ٩.

ـ فصل القول فيمن يحكم بغير ما أنزل الله :

نحن إذ نتكلم ـ في بحثنا هذا ـ عن طغيان الحاكم الذي يحكم بغير ما أنزل الله، وعن حكم الشرع فيه، لا نقصد منه صورة ذاك الحاكم الطيب الذي يحب شرع الله، ولا يرضى عنه بديلاً، ويسعى إلى تطبيقه ـ قدر طاقته ـ في جميع مجالات الحياة، لكنه في واقعة ـ وقل وقائع ـ تخونه نفسه، فيحكم فيها بغير ما أنزل الله لضعف في نفسه أو هوى، مع اعترافه بالتقصير وشعوره بالإثم، كما هو حال كثير من حكام بني أمية والعباسيين، وغيرهم من حكام المسلمين الذين جاؤوا من بعدهم.

فهؤلاء ـ ومن كان على صورتهم ـ لا نقول إلا بإسلامهم، ولا نعرف أحداً من أهل العلم المعتبرين قال بكفرهم، وعليهم وعلى أمثالهم نحمل مقولة ابن عباس رضي الله عنه وغيره من أهل العلم: إنه كفر دون كفر، وليس بالكفر الذي ينقل عن الملة، وأنهم فعلوا فعلاً يضاهي أفعال الكفار.

فنحن لا نريد هذه الصورة الشبه غائبة عن الساحة ومنذ زمن بعيد، وإنما نريد حالة أخرى، نريد تلك الصورة السائدة في كثير من أمصار المسلمين. . .

نريد ذاك الحاكم الذي غير وبدل، وقدم شرع الطاغوت على شرع الله، واستحسنه وحسنه في أعين الناس. . .

نريد ذاك الحاكم الذي يحارب ويعادي شرع الله، والدعاة إلى تطبيق شرع الله في الأرض. . .

نريد ذاك الحاكم الذي يحمي ـ بالمال والرجال والسلاح ـ قوانين الكفر، ويقاتل الأمة دونها . . .

نريد ذاك الحاكم الذي ظهرت فيه جميع العلامات والقرائن الدالة على كرهه لشرع الله . .

نريد ذاك الحاكم الذي يحتاج إلى ثورة عارمة مسلحة حتى ينصاع إلى أمر أو حكم واحد من أحكام الله . . !

نريد ذاك الحاكم الذي أعطى ظهره لشرع الله، وأعرض عنه كل الإعراض . . .

نريد ذاك الحاكم الذي استحل ـ بلسان الحال والعمل وهو أقوى من سان المقال ـ الحكم بغير ما أنزل الله . .

فهذه الصورة الخبيثة الجاثمة على صدر الأمة ومقدراتها نريد، وهذا الحاكم الطاغي ـ بصفاته الآنفة الذكر ـ نريد، وفيه نقول: قد اجتمعت أدلة الكتاب والسنة، وجميع أقوال علماء الأمة المعتبرين ـ بما لا يدع مجالاً للشك والتوقف أو التردد ـ على كفره كفراً بواحاً ظاهراً، لا يتوقف في تكفيره إلا كل مرجف مغفل، أو جاهل أعمى البصر والبصيرة.

وإليك بعض أقوال أهل العلم في ذلك:

١ ـ ابن كثير:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾[1].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم «الياسق»، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير، قال تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾، أي يبتغون ويريدون وعن حكم الله يعدلون ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقومٍ يوقنون﴾[1].

فتأمل كيف اعتبر الحكم «بالياسق» كفراً، وأن الذي يحكم به كافر يجب قتاله.. ثم تأمل هل تجد فارقاً بين ياسق جنكزخان وبين القوانين الوضعية النافذة في أمصار المسلمين؟!

بل لربما كان الياسق أفضل من جهة أنه يحتوي على بعض ما جاء في الملة الإسلامية، بخلاف القوانين الوضعية التي كلها مستمدة من قوانين الغرب وأهواء الرجال.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٠.

٢ ـ أحمد شاكر:

قال معلقاً على كلام ابن كثير السابق: أفيجوز مع هذا في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربة الوثنية الملحدة، بل تشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون، لا يبالي واضعه وافق شرعة الإسلام أم خالفها...

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح لا خفاء فيه ولا مداورة، ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام ـ كائناً من كان ـ في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها...

أفيجوز مع هذا لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد، أعني التشريع الجديد؟!

أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل الياسق العصري، وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة؟![1].

٣ ـ ابن تيمية:

في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت...﴾.

قال: في هذه الآيات أنواع من العبر من الدلالة على ضلال من تحاكم إلى غير الكتاب والسنة، وعلى نفاقه، وإن زعم أنه يريد

---

(١) عمدة التفسير: ٤/١٧١ و ١٧٤.

التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين وأهل الكتاب وغير ذلك من أنواع الاعتبار.

وولي الأمر إذا ترك إنكار المنكرات وإقامة الحدود عليها بمال يأخذه، كان بمنزلة مقدم الحرامية، الذي يقاسم المحاربين على الأخيذة، وبمنزلة القواد الذي يأخذ ما يأخذه ليجمع بين اثنين على فاحشة[1]، وكان حاله شبيهاً بحال عجوز السوء امرأة لوط التي كانت تدل الفجار على ضيفه التي قال الله تعالى فيها: ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾...

وولي الأمر إنما نصب ليأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر وهذا هو مقصود الولاية، فإذا كان الوالي يمكن من المنكر بمال يأخذه[2]، كان قد أتى بضد المقصود، مثل من نصبته ليعينك على عدوك، فأعان عدوك عليك. وبمنزلة من أخذ مالاً ليجاهد به في سبيل الله، فقاتل به المسلمين...

وقال: فكل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة يجب جهادها، حتى يكون الدين كله لله، باتفاق العلماء.

---

(١) إذا كانت هذه منزلة من يحكم بغير ما أنزل الله لرشوة يرتشيها، فما يكون القول إذاً فيمن يعرض عن حكم الله إعراضاً كلياً، ويستبدل شرع الله بشرائع شتى من صنع البشر..؟!

(٢) قلت: فكيف بحكام وولاة هم يدفعون المال ليمكنوا من المنكر والفواحش..؟!

فثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، أنه يقاتل من خرج عن شريعة الإسلام وإن تكلم بالشهادتين. . .

وقال: فكل من امتنع من أهل الشوكة عن الدخول في طاعة الله ورسوله فقد حارب الله ورسوله، ومن عمل في الأرض بغير كتاب الله وسنة رسوله فقد سعى في الأرض فساداً. . .

ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين ان من سوغ[1] اتباع غير دين الإسلام، أو اتباع شريعة غير شريعة محمد ﷺ: فهو كافر، وهو ككفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض الكتاب. . .

وقال: فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزله الله فهو كافر[2]، فإن ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم

---

(١) ليت حكام هذا الزمان وقفوا عند التسويغ لشرائع الكفر ولم يتجاوزوا ذلك، بل تراهم ـ وبكل وقاحة وجرأة على الله ـ يروجونها، ويحسنونها في أعين الناس، ويأطرون الأمة أطراً على التحاكم إليها، والويل كل الويل لمن يعارضها أو يتخلف عن تنفيذ أحكامها، والقانون ـ كما يقولون ـ فوق كل شيء. . فأي كفر بعدا هذا الكفر.

(٢) إن إطلاق أهل العلم لشرط الاستحلال مشكل على مرجئة العصر، فهم لا يرون الاستحلال استحلالاً إلا إذا نطق المرء بعظمة لسانه أنه يستحل الحكم بغير ما أنزل الله في قلبه ـ ومثل هذا لا يصدر عن أطغى طغاة الأرض ـ وما سوى ذلك من القرائن العملية الجلية التي تدل على الاستحلال والجحود والاستهانة بحكم الله، لا اعتبار لها عندهم، وحقيقة ذلك أنهم يبطلون العمل والقول كدليل على الإيمان أو الكفر ـ فهم جهميون في الإيمان وإن لم يعترفوا بذلك ـ وهذا مخالف لما عليه سلف =

بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله، كسواليف البادية، ويرون أن هذا الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر. فإن كثيراً من الناس أسلموا، ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار[1].

٣ ـ محمد بن عبد الوهاب:

قال رحمه الله: نُكفِّر من أشرك بالله في إلهيته بعدما نبين له الحجة[2] على بطلان الشرك، وكذلك نكفر من حسنه للناس، أو

= الأمة، من أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، كما أن الكفر يكون بالاعتقاد والقول والعمل، وتفصيل ذلك تجده في ردنا على شريط «الكفر كفران» للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وهو في مصنف يتجاوز المائتين صفحة.

(١) انظر الفتاوى: ٣/٣١٧ و ٢٨/٣٠٥، ٣٠٨، ٣٥٧، ٤٧٠، ٥٢٤، ومجموعة التوحيد: ٢٩٣.

(٢) اشتراط قيام الحجة قبل تكفير المعيّن، يكون في حالة رجحان الظن أن ذاك المعين قد وقع في الكفر عن جهل لا يمكن دفعه؛ لأن العجز يرفع التكليف، وهذا ما يقصده الشيخ رحمه الله.

أما إذا كان كفره عن جهل أو عجز يمكن دفعه لكنه لا يفعل تقصيراً أو تفريطاً، فإنه لا يعذر، ويُكفَّر بعينه، ولا يشترط لتكفيره قيام الحجة، لأن الخطأ لا يبرر الخطأ ولا يكون عذراً له، ولقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾، وهذا يستطيع أن يرد عن نفسه الكفر لكنه ما فعل.

وإذا كان الأمر كذلك مع من كانت هذه حاله، فمن باب أولى أن لا يعذر =

أمام الشبه الباطلة على إباحته، وكذلك من قام بسيفه دون هذه المشاهد - أي القبور - التي يشرك بالله عندها، وقاتل من أنكرها وسعى في إزالتها، ونكفر من أقر بدين الله ورسوله ثم عاداه وصد الناس عنه[1].

قلت: ونحوه الذي يقاتل دون قوانين الكفر والشرك، وقاتل من أنكرها وسعى في إزالتها، فإنه كافر أيضاً. وكذلك الذي يروجها ويحسنها ويفرضها على الأمة فإنه كافر.

٤ - محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ:

قال رحمه الله: الحاكم بغير ما أنزل الله كافر، إما كفر اعتقادٍ ناقل عن الملة، وإما كفر عملٍ لا ينقل عن الملة[2].

أما الأول وهو كفر الاعتقاد، فهو أنواع:

أحدها: أن يجحد الحاكمُ بغير ما أنزل الله أحقيَّة حكم الله

= أو يشترط لتكفيره قيام الحجة عليه من جديد، من قد بلغته الحجة الشرعية بصورة صحيحة ترفع عنه الجهل واللبس فيما هو واقع فيه من الكفر.
أقول ذلك: لأن مرجئة العصر يجعلون قيام الحجة جملة اعتراضية أمام تكفير أي معين، ولو كان المكفَّر أطغى من إبليس وأعلم منه..!!

(١) الرسائل الشخصية، ص ٥٨، ٦٠. قلت: تأمل كيف اعتبر المقاتل دون القبور التي تعبد من دون الله كافراً، وأن فعله قرينة على الكفر تدمغه بالكفر، وإن لم يصرح بلسانه أنه يستحل ذلك في باطنه.

(٢) يريد من كفر الاعتقاد الكفر الأكبر، وليس الكفر المحصور في اعتقاد القلب فقط، وكذلك الكفر العملي فهو يريد منه الكفر الأصغر الذي هو دون الكفر الأكبر، ولا يريد نفي الكفر الأكبر مطلقاً عن العمل الظاهر، كما يروج لذلك جهمية العصر!!.

ورسوله. وهذا ما لا نزاع فيه بين أهل العلم.. فإنه كافر الكفر الناقل من الملة.

الثاني: أن لا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه، وأتمُّ وأشملُ.. وهذا أيضاً لا ريب أنه كفر.

الثالث: أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله، فهذا كالنوعين اللذين قبله، في كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة.

الرابع: أن لا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله، فضلاً عن أن يعتقد كونه أحسن منه، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكمَ الله ورسوله، فهذا كالذي قبله...

الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه ومشاقة لله ولرسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية، إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً وتفريعاً وتشكيلاً وتنويعاً وحكماً وإلزاماً، ومراجع ومستندات.

فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات، مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فلهذه المحاكم مراجع، هي: القانون الملفق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة؛ كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك.

فهذه المحاكم في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما

يخالف حكم السنة والكتاب من أحكام ذلك القانون، وتُلزمهم به، وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم. فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسولُ الله بعد هذه المناقضة.

السادس: ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر، والقبائل من البوادي ونحوهم، من حكايات آبائهم وأجدادهم، وعاداتهم التي يسمونها «سلومهم»، يتوارثون ذلك منهم، ويحكمون به ويحضون على التحاكم إليه عند النزاع، بقاءً على أحكام الجاهلية، وإعراضاً ورغبة عن حكم الله ورسوله[1].

قلت: من يتأمل واقع كثير من حكام هذه الأمة ـ بعين الإنصاف والتجرد للحق ـ يجد أن هذه الأنواع الستة التي ذكرها الشيخ ـ وأن واحدة منها تكفر الحاكم وتخرجه من الملة ـ متوفرة فيهم جميعها ويتصفون بها، ويزيدون عليها خصلة الاستهانة والتهكم والاستهزاء بشرع الله، وخصلة أخرى ثامنة وهي: محاربتهم واضطهادهم لمن يطالبهم بالحكم بما أنزل الله... ومع ذلك نجد ـ من مشايخ الإرجاء ـ من يتوقف عن تكفيرهم ـ رغبة أو رهبة ـ ويحمل عليهم مقولة: كفر دون كفر، والكفر العملي الأصغر!!

فإن قيل: كيف تحملونهم تبعات النوع السادس؛ وهو تحاكم القبائل والعشائر إلى الحكايات والعادات..؟

أقول: فهم يتحملون تبعات هذا النوع لأنهم يقرونهم على ذلك، ويشجعونهم عليه، ويعتبرون ذلك من خصوصيات القبائل التي لا

---

(١) رسالة تحكيم القوانين.

ينبغي التدخل بها، وربما اعتبروها من التراث الشعبي الذي ينبغي المحافظة عليه.. والرضى بالشيء كفاعله، والرضى بالكفر كفر.

وربما كان سكوتهم عليهم وتشجيعهم لهم من باب اضعاف شوكة المطالبة بالحكم بما أنزل الله، فهم مما عُرفوا فيه أنهم كل ما يصب في إضعاف شوكة الإسلام والمسلمين، يشجعونه ويروجونه، ويسكتون عليه.

٥ ـ الشنقيطي:

قال رحمه الله: أما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض، فتحكيمه كفر بخالق السماوات والأرض؛ كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأنهما يلزم استواؤهما في الميراث، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان، ونحو ذلك.

فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كفر بخالق السماوات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه من خَلَق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علواً كبيراً ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾.

ويفهم من هذه الآيات كقوله ﴿ولا يشرك في حكمه أحدا﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله، وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخر؛ كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في

إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ فصرح أنهم مشركون بطاعتهم، وهذا الإشراك في الطاعة، واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾. وقوله تعالى: ﴿وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾، أي ما يعبدون إلا شيطاناً، أي وذلك باتباع تشريعه، ولذا سمى الله الذين يطاعون فيما زينوا من المعاصي شركاء في قوله تعالى: ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾.

ومن أصرح الأدلة في هذا أن الله جل وعلا في سورة النساء بين أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرعه الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا﴾.

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته،

وأعماه عن نور الوحي مثلهم[1].

٦ ـ عبد العزيز بن باز:

حيث قال: ولا إيمان لمن اعتقد أن أحكام الناس وآراءهم خير من حكم الله ورسوله، أو تماثلها وتشابهها، أو تركها وأحل محلها الأحكام الوضعية، والأنظمة البشرية، وإن كان معتقداً أن أحكام الله خير وأكمل وأعدل.

وقال: فمن خضع لله سبحانه وأطاعه وتحاكم إلى وحيه، فهو العابد له، ومن خضع لغيره وتحاكم إلى غير شرعه، فقد عبد الطاغوت وانقاد له، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾.

والعبودية لله وحده والبراءة من عبادة الطاغوت والتحاكم إليه من مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله[2].

فانظر كيف اعتبر الشيخ أن مجرد ترك الحكم بما أنزل الله، واستبداله بالأحكام الوضعية والأنظمة البشرية ـ كما هو حال أكثر الأنظمة الحاكمة اليوم ـ يقتضي انتفاء مطلق الإيمان عن صاحبه، وإن ادعى سلامة اعتقاده نحو شرع الله وحكمه.

---

(١) أضواء البيان: ٤/ ٨٣ ـ ٨٤.
(٢) رسالة وجوب تحكيم شرع الله.

٧ ـ سيد قطب:

قال رحمه الله: إما أن يكون الحكام قائمين على شريعة الله كاملة فهم في نطاق الإيمان، وإما أن يكونوا قائمين على شريعة أخرى مما لم يأذن به الله فهم الكافرون والظالمون والفاسقون.

وإن الناس إما أن يقبلوا من الحكام والقضاة حكم الله وقضاءه في أمورهم، فهم مؤمنون وإلا فما هم بالمؤمنين... ولا وسط بين هذا الطريق وذاك، ولا حجة ولا معذرة ولا احتجاج بمصلحة.

وليس لأحد من عباده أن يقول إنني أرفض شريعة الله، أو أنني أبصر بمصلحة الخلق من الله، فإن قالها ـ بلسان أو بفعل ـ فقد خرج من نطاق الإيمان. فما يمكن أن يجتمع الإيمان وعدم تحكيم شريعة الله، أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة.

والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهم «مؤمنون» ثم هم لا يحكمون شريعة الله في حياتهم، أو لا يرضون حكمها إذا طبق عليهم، إنما يدعون دعوى كاذبة، وإنما يصطدمون بهذا النص القاطع ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾.

فمن شاء أن يقول: إن البشرية في طور من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها فليقل، ولكن ليقل معه إنه ـ والعياذ بالله ـ كافر بهذا الدين مكذب بقول رب العالمين.

وهكذا تتبين القضية بقول الله سبحانه ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون إلى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾.

هكذا تتبين القضية . . إله واحد، ومالك واحد . . إذن فحاكم واحد ومشرع واحد، ومتصرف واحد . . وإذن فشريعة واحدة، ومنهج واحد وقانون واحد . . وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله ، فهو إيمان وإسلام . أو معصية وحكم بغير ما أنزل الله ، فهو كفر وظلم وفسوق .

ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة، ويستبدل بها شريعة الجاهلية وحكم الجاهلية، ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب أو هوى جيل من أجيال البشر ، فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله؟!

ما الذي يستطيع أن يقوله وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟!! الظروف؟ الملابسات؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟ ألم يكن هذا كله في علم الله وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته وأن يسيروا على منهجه ، وألا يُفتنوا عن بعض ما أنزله؟

قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة، والأوضاع المتجددة والأحوال المتقلبة؟ ألم يكن ذلك في علم الله وهو يشدد هذا التشديد ويحذر هذا التحذير؟

يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء، ولكن المسلم أو من يدعون الإسلام ما الذي يقولونه في هذا كله ، ثم يبقون على شيء من الإسلام أو يبقى لهم شيء من الإسلام، إنه مفرق الطريق الذي لا جدوى عنده من الاختيار، ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال . . إما إسلام وإما جاهلية ، إما إيمان وإما كفر ، إما حكم الله وإما حكم الجاهلية . .

ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله، فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه[1].

٨ ـ محمد حامد الفقي:

قال ـ رحمه الله ـ في تعليقه على «ياسق» التتار الذي تكلم عنه ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾: ومثل هذا وشر منه، من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله، ولا ينفعه أي اسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحج ونحوها[2].

أقول: في هذه النقولات لجهابذة أهل العلم القدر الكافي لمن أراد معرفة الحق في المسألة، أما من أعمى الله بصره وبصيرته، ممن آثر ركوب الهوى من غير التفات إلى نص أو قول عالم معتبر، فهؤلاء حسبنا أن نقول فيهم قوله تعالى: ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾[3]، ﴿أتريدون أن تهدوا من أضلَّ اللهُ ومن يُضلل اللهُ فلن تجد له سبيلا﴾[4].

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن: ٢/٥٢ و ١٧٣ و ١٨٩ و ١٩٦.

(٢) حاشية فتح المجيد: ٣٩٦.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٨.

ـ ما يتعلق بفقه آيات سورة المائدة:

وهي قوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.. الظالمون.. الفاسقون﴾[1].

قال ابن عباس: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، ففيهم والله أنزل وإياهم عنى الله عزّ وجلّ[2]. وقال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر. وعن البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وأبي مجلز، وأبي رجاء العطاري، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصري، وغيرهم قالوا: نزلت في أهل الكتاب، زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة. وعن سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضي الله لهذه الأمة.

والذي اختاره ابن جرير الطبري: أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب[3].

مما سبق تتضح الأمور التالية:

١ ـ أن الآيات نزلت في كفار أهل الكتاب، وهي تشمل غيرهم ممن يجحد حكم الله عز وجل...

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٤٤، ٤٥، ٤٧.

(٢) جاء في صحيح سنن أبي داود ٣٠٥٣: عن ابن عباس قال: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)، إلى قوله (الفاسقون)، هؤلاء الآيات الثلاث نزلت في اليهود، خاصة في قريظة والنضير.

(٣) انظر تفسير ابن كثير.

٢ ـ أن الآيات إذا أطلقت فهو يراد منها: الكفر الأكبر، والفسق الأكبر، والظلم الأكبر، لأنها نزلت في أهل الكتاب ومن يجحد حكم الله. وليس كما يفعل مشايخ الإرجاء لمجرد سماعهم الآيات، سرعان ما يحملونها على الكفر دون كفر، والظلم دون ظلم، والفسق دون فسق متذرعين بقول ابن عباس..!! فهي مقولة حق، لكن يريدون بها إحقاق باطل، وإبطال حق حيث وضعوها في غير موضعها وحملوها ما لا تحتمل.

٣ ـ عند حمل الآيات على المسلمين، ينظر لحالهم: إن كانوا ممن يرفضون حكم الله، ويحاربون دعاة الحكم إلى الله، ويشرعون التشريع الذي يضاهي شرع الله، وقد بدلوا حكم الله بحكم الطاغوت.. فهؤلاء ينطبق عليهم الكفر الأكبر، والظلم الأكبر، والفسق الأكبر المخرج عن الملة، وإن لم يصرحوا بلسانهم أنهم يجحدون حكم الله؛ لأن لسان الحال أقوى من لسان المقال وهو شاهد عليهم بالكفر. أما إن كانوا ممن يحكمون بما أنزل الله، وتظهر منهم القرائن اللفظية والفعلية الدالة على حبهم لحكم الله ورضاهم به وحرصهم عليه، وأنهم يسعون جهد طاقتهم لتطبيقه، ثم هم في مسألة أو بعض المسائل يحكمون فيها بغير ما أنزل الله لهوى أو ضعف أو شهوة أو تأويل باطل، مع اعترافهم بالتقصير وشعورهم بالإثم، فمثل هؤلاء يحمل عليهم قول ابن عباس: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم...

قال ابن القيم: الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما

أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر[1]، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه حكم الله هذا كفر أكبر[2].

٤ ـ إذا كان ابن عباس يقول: إن الآيات نزلت في كفار أهل الكتاب، وأن من جحد حكم الله فهو كافر، إذاً من يقصد بقوله: كفر دون كفر، وإنه ليس بالكفر الذي ينقل عن الملة؟

فإن من تمام فقه «مدلولات القول» إدراك زمانه، والظروف المحيطة به، والأسباب التي دعت إليه، وابن عباس رضي الله عنه كان يقصد حكاماً مسلمين معاصرين له وهم حكام بني أمية، الذين لم تظهر منهم القرائن الدالة على جحودهم لحكم الله أو الاستهانة به، وكانوا يحكمون الشريعة في عموم حياة الناس، والانحراف الذي طرأ في الحكم في عهد الأمويين ـ وعنه سئل ابن عباس وهو المعني من كلامه ـ قد أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أول ما يفقد من الدين الحكم». وقال: «أول من يغير سنتي رجل من بني

---

(١) تأمل أهكذا هم حكام هذا الزمان حتى تحمل عليهم مقولة: كفر دون كفر، وكفر أصغر؟!
ثم انظر كيف وصفه بعدوله عن الحكم بما أنزل الله في واقعة معينة واحدة، إذ لا يخطر على باله رحمه الله، ولا على بال غيره من أهل العلم أن يفترض في الحاكم أن ينحي شرع الله كلياً ويستبدل به شرعاً آخر من صنعه أو صنع غيره من الطواغيت، ثم يحمل عليه مقولة الكفر الأصغر، وكفر دون كفر.. كما هو صنيع مرجئة العصر.

(٢) بدائع التفسير: ٢/ ١١٢.

أمية»[1]. أي بغير سنته ﷺ في اختيار الخليفة إلى نظام وراثي، ومع ذلك لا أحد يشك في إسلام معاوية وأولاده، ولا أحد قال بكفرهم.

وعليه فمن الخطأ الظاهر حمل كلام ابن عباس ـ كفر دون كفر ـ الذي كان يقصد به حكام بني أمية، على حكام في هذا العصر استحلوا الحكم بغير ما أنزل الله بالقول والفعل، واجتمعت فيه جميع نواقض الإيمان[2].

٦ ـ المشرع من دون الله:

يختلف المشرع عن الحاكم المنفذ، وهذا ما يسمونه في هذه الأيام بالسلطة التشريعية التي تلزم السلطة التنفيذية ـ وهم الحكام ـ بتنفيذ ما يصدر عنها من أحكام وتقريرات وتشريعات.

وقد يكون المشرع من دون الله شخصاً، أو هيئة، أو جماعة، أو حزباً، أو مجلساً يضم مشرعين، أو أحبار ورهبان ومشايخ يكتسون الطابع الديني... وغير ذلك.

---

(١) السلسلة الصحيحة: «١٧٤٩». قال الشيخ ناصر: لعلّ المراد بالحديث تغيير نظام اختيار الخليفة وجعله وراثة اهـ.

(٢) قال الشيخ محمد قطب في كتابه «واقعنا المعاصر»، ٣٢٤: مظلوم ابن عباس فقد قال ما قال وهو يُسأل عن الأمويين، أنهم يحكمون بغير ما أنزل الله، فما القول فيهم؟ وما من أحدٍ على الإطلاق قال عن الأمويين إنهم كفار، فقد كانوا يحكمون الشريعة في عموم حياة الناس، ولكنهم يحيدون عنها في بعض الأمور المتعلقة بسلطانهم إما تأويلاً وإما شهوةً ـ ولكنهم لا يجعلون مخالفتهم تشريعاً مضاهياً لشرع الله ـ فقال فيهم ابن عباس: إنه كفر دون كفر، فهل كان يمكن لابن عباس أن يقول هذا فيمن ينحي الشريعة الإسلامية أصلاً، ويضع بدلاً منها قوانين وضعية؟!

وعلى العموم فإننا نقول: كل من جعل خاصية التشريع ـ التحليل والتحريم، والتحسين والتقبيح ـ لنفسه من دون الله، وأخذ يشرع للعباد ما يهواه ويراه، فهو طاغوت وقد جعل من نفسه نداً لله تعالى، يجب تكفيره والكفر به.

وقوله تعالى: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾، يطاله ويشمله كطاغوت يعبد من جهة التحاكم إلى ما يشرّع، ومن جهة طاعته والإقرار له بخاصية التشريع التي تعتبر من خصوصيات الله وحده، كما قال تعالى: ﴿ولا يشرك في حكمه أحداً﴾.

فأيما مخلوق يعترف له بهذا الحق، ويتحاكم إلى ما يصدر عنه من أحكام وتشريعات، فقد أقر له بالإلّهية والربوبية، واتخذه معبوداً ونداً لله تعالى في أخص خصائصه، وإن صلّى وصام وزعم أنه من المسلمين. وقوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾، يطاله ويشمله.

٧ ـ التشريع ذاته:

كذلك فإن التشريع المضاهي لشرع الله تعالى فهو طاغوت، وهو مما يراد من قوله تعالى: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾. وقد تقدم معنا في التعريف للطاغوت، أن من أهل العلم من أدخل التشريعات المضاهية لشرع الله، والقوانين الوضعية وغيرها في مسمى الطاغوت، وأجرى عليها اسم الطاغوت وصفة الطغيان[1].

---

(١) جاء في فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١/ ٥٤٢): والمراد:

ومما يدخل في هذا النوع من الطاغوت الدساتير الوضعية التي صاغتها عقول البشر لتحكم البلاد والعباد، والجميع ـ كما يقولون عبدة الطاغوت ـ تحت الدستور؛ ينفذون ما جاء فيه، فالدستور يعلو الجميع ولا يُعلى عليه كما يقولون. . !

ولشدة رهبة القوم من الدستور ـ التي تأتت بعد دعاية مكثفة قد قام بها الطاغوت ـ فإنهم يتصورون أن يخرجوا على كل شيء أو ينقدوا كل شيء سوى الدستور الطاغوت الذي خطه الطاغوت، فالدستور ـ عندهم ـ فوق التعقيب وفوق النقد والاعتراض، والويل كل الويل لمن تسول له نفسه إهانة الدستور والتطاول عليه. . . !!

ومما يدخل كذلك في هذا النوع من الطاغوت، الكتب التي تروج الكفر وتدعو له، وبخاصة منها تلك الكتب التي تحتوي على مبادىء ومناهج الأحزاب العلمانية الكافرة وغيرها، والتي تعتبر مراجع هامة ـ لا بد من الأخذ بها ـ عند أفراد الحزب ومن ينتمون إليه. . !

فالكتاب الذي يتضمن الكفر والشرك، وثن منصوب ينتظر من يقع في شباكه، فيأخذ بما فيه ويتبعه[1].

= بالطاغوت في الآية: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾، كل ما عدل عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ إلى التحاكم إليه من نظم وقوانين وضعية أو تقاليد وعادات متوارثة أو رؤساء قبائل ليفصل بينهم بذلك، أو بما يراه زعيم الجماعة أو الكاهن، ومن ذلك يتبين أن النظم التي وضعت ليتحاكم إليها مضاهاة لتشريع الله داخلة في معنى الطاغوت أ. هـ.

(١) وهذا يستدعي من القائمين على دور النشر ـ وبخاصة التي تسمي نفسها إسلامية الامتناع عن نشر كتب تحتوي على الكفر والشرك والضلالات، =

فإن قيل: الطاغوت هو الذي يعبد من دون الله، فأين تكمن عبادة التشريع...؟

أقول: من الواضح أن عبادته تكمن من جهة التحاكم إليه وطاعته، والأخذ بنصوصه وأحكامه من غير تعقيب أو تقديم بشيء يدل على التعقيب والاعتراض، وغير ذلك من الأمور التي تدخل في معنى العبادة لغة وشرعاً، والتي لا يجوز صرفها إلا لله تعالى.

٨ ـ المحبوب لذاته من دون الله تعالى:

قد تقدم أن المحبوب لذاته من دون الله معبود من جهة عقد الولاء والبراء فيه وعليه، فيُحب فيه ويُعادَى فيه، ويُوالى من يواليه ويُعادَى من يعاديه من غير التفات إلى حق أو باطل.

ومن كان كذلك فهو طاغوت، وقد جُعل منه نداً لله تعالى فيما يجب له سبحانه وتعالى وحده، كما قال: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾، وقد تقدمت الأدلة على هذا النوع من الشرك والطغيان.

والذي نريد أن نشير إليه هنا أن المحبوب لذاته طاغوت، وقد تختلف أشكاله وصوره، فقد يكون حاكماً، أو شيخاً، أو زعيماً لحزب، أو وطناً، أو قوماً، أو قبيلة، أو امرأة، أو مالاً[1]، أو خمراً

= فإن الدال على الشر كفاعله، حيث وجدنا كثيراً منهم متهاونين في هذا الشأن مقابل الكسب المادي..!!.

(١) تأمل قوله ﷺ: «تعس عبد الدرهم»، وما سمي عبداً له إلا لأنه جعل المال =

وما يدخل في قائمته من المخدرات[1]، وغير ذلك. فكل من عُقد عليه الولاء والبراء فهو داخل في ذلك، ومسمى الطاغوت يطاله ويشمله.

٩ ـ المطاع لذاته من دون الله:

وكذلك المطاع لذاته فهو طاغوت، وعبادته تكمن ـ كما تقدم ـ من جهة طاعته فيما لا يُعلم أنه حق أو باطل، وأمره مطاع من غير تعقب أو رد سواء كان موافقاً للحق أم غير ذلك. وهذا النوع من العبودية للطاغوت أكثر الناس قد وقعوا فيه، وهم يدرون أو لا يدرون!!

والمطاع لذاته من دون الله قد يكون حاكماً، أو زعيماً لقبيلة أو حزباً أو جماعة، أو شيخاً، أو حبراً كبابا النصارى وغيره...

= محور حياته، وأساس علاقته بين الناس، فلا همّ له سوى الربح وتكثير المال، فحيثما يكمن الربح والكسب تجده متودداً باشاً الوجه متذللاً، وحيثما ينتفي الربح المادي تجده عابساً معرضاً ومترفعاً..!

وهذا هو المراد من قوله ﷺ: «من سعى مكاثراً ـ أي للمال ـ ففي سبيل الطاغوت، وفي رواية: سبيل الشيطان». السلسلة الصحيحة: «٢٢٣٢».

(١) ندرك ذلك عندما تعلم أن متعاطي المخدرات على استعداد أن يضحي بكل شيء مقابل أن يؤمّن جرعته من المخدرات، فهو يوالي ويعادي عليه، وربما يقاتل ويستميت لأجله، على هذا المعنى ينبغي أن يُحمل قوله ﷺ: «مدمن الخمر إن مات لقي الله كما يدوثن»، رواه أحمد وغيره السلسلة الصحيحة: «٦٧٧». وقوله: «إن مات» أي إن مات وهو على إدمانه، وكذلك قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة مدمن خمر». رواه ابن حبان في صحيحه السلسلة الصحيحة: «٦٧٨». =

١٠ ـ الوطن والوطنية:

الوطن يكون طاغوتاً ومعبوداً من دون الله عندما يُعقد الولاء والبراء على أساس الإنتماء إليه ولحدوده، وتقسم الحقوق والواجبات على هذا الأساس. بحيث أن من كان ينتمي للوطن ويسكن داخل حدوده فله كل الحقوق والموالاة ولو كان من أكفر الكافرين، ومن كان لا ينتمي إلى الوطن من حيث السكنة والجنسية فليس له شيء من الحقوق التي تحق لذاك المواطن الكافر ولو كان من أتقى أهل الأرض وأفضلهم..!!

ومن صور ذلك، الوحدة الوطنية التي تُردَّد على ألسنة الطواغيت وكثير من الناس المخدوعين، والتي يُراد منها تحالف الأحزاب والفِرَق الوطنية جميعها، الصالح منها والطالح، وتوحيد صفها في مواجهة التحديات التي تواجة الوطن، فالوطن: محور اهتماماتهم، والغاية العظمى التي تجتمع عليها جهودهم..!!

جاء في فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: أن من لم يفرق بين اليهود والنصارى وسائر الكفرة وبين المسلمين إلا بالوطن، وجعل أحكامهم واحدة فهو كافر[١].

قلت: هو كافر لكونه أشرك الوطن مع الله تعالى في الولاء والبراء، وجعل الاعتبار في ذلك هو الوطن والتراب وليس العقيدة والدين، وهذا مفاده رد وإبطال كثير من النصوص الشرعية التي تنص على وجوب عقد الولاء والبراء في العقيدة والدين.

---

(١) السؤال الثالث من الفتوى رقم (٦٣١٠)، ١/١٤٥.

ومن غلو القوم في تعظيم الوطن وتأليهه من دون الله عز وجل أن جعلوه ـ من خلال التربية والتثقيف ووسائل الإعلام ـ غاية لكل عمل خير يقوم به الإنسان، فهم يجاهدون في سبيل الوطن! ويتبرعون في سبيل الوطن! ويموتون في سبيل الوطن! ويعادون ويسالمون في سبيل الوطن.. وغير ذلك مما لا يجوز فعله إلا أن يكون في سبيل الله وحده، والغاية منه مرضاة الله عز وجل.

كما في صحيح البخاري، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وهذا تعبير يفيد الحصر؛ أي أن القتال المحبوب شرعاً هو القتال الذي تكون الغاية منه محصورة في إعلاء كلمة الله في الأرض، وما سواه فإنه قتال باطل لأن غاياته باطلة، وهو في سبيل الطاغوت، كما قال تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾[1]، فهما قتالان ـ لا ثالث لهما ـ إما قتال في سبيل الله وحده، وإما قتال في سبيل الطاغوت، حيث لا خلط بينهما ولا التباس، وكل قتال ليس في سبيل الله وحده فهو في سبيل الطاغوت.

فإن قيل: كيف نوفق بين ما تقدم من كون المرء لا يجوز له أن يضحي ويقاتل في سبيل الوطن، وبين كون الدفاع عن أرض الإسلام

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٠.

وأوطان المسلمين واجب شرعي وفرض على المسلمين القيام به؟ وكذلك كون المرء الذي يقتل دون ماله وعرضه ومظلمته فهو شهيد؟

أقول: لا تعارض بين الأمرين ولله الحمد؛ فهناك فرق بين أن يقاتل دفاعاً عن شيء في سبيل الله وإعلاء لأمره وحكمه، وأن يقاتل دفاعاً عن شيء في سبيل هذا الشيء، وحمية له من دون أن يرد الأمر إلى الله عز وجل، فالأول هو الذي شرعه الإسلام وأمر به، وهو من أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه، وأما الثاني فهو باطل وشرك لأنه يتضمن صرف الأعمال لغير الله تعالى.

وكذلك هناك فرق بين حب الأوطان والحنين إليها وهو مشروع، وبين أن يعقد الولاء والبراء على أساس الانتماء لهذه الأوطان، وأن تكون غاية تصرف في سبيلها الأعمال، وهذا لا يشرع لما يتضمن من إشراك الأوطان مع الله تعالى كما تقدم، حيث أن كثيراً من الناس يخلطون بين الأمرين!!.

فمكة كانت أحب بقاع الأرض إلى قلب نبينا محمد ﷺ، ولكن الله أحب وأجل وأعز وأعلى، ولما حصل الاختيار بين الإقامة في الوطن الحبيب مسقط الرأس ومنبت الطفولة والشباب وبين الهجرة إلى الله إلى دار الإسلام حيث يثرب المدينة المنورة، فقد آثر مرضاة الله تعالى والهجرة إليه، وعلى دربه هذا سار الصحابة والتابعون، ونحن على آثارهم سائرون ومقتدون.

تنبيه هام:

اعلم أن الله تعالى غاية عظمى لا تعلوه ولا تُقدَّم عليه غاية وهذا حقه عليك يا عبد الله، فإذا حصل الاختيار بين الله تعالى وبين

الأوطان والأهل والعشيرة والمال وغير ذلك من زينة الحياة الدنيا وفتنتها، فالمختار والمُقدَّم هو الله سبحانه وتعالى، فكل شيء في سبيله يهون ويرخص، وفي سبيل غيره كل شيء يعز ويسمو. . .

فغيرنا يضحي في سبيل الطاغوت ولا يبالي، فنحن أولى في أن نضحّي ونستميت في سبيل الله وحده، وبخاصة أننا نرجو من الله ما لا يرجون. وهذا من بدهيات لوازم الإيمان والتوحيد، الذي يجب على كل مسلم أن يدركه وينتبه إليه، وإلا فإن دعواه الإسلام زعم لا حقيقة له.

قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1]. والمراد بالفسق هنا الفسق الأكبر المخرج عن الملة، هذا ما تقتضيه مناسبة الآية، والنصوص الشرعية الأخرى ذات العلاقة بالموضوع.

١١ ـ القوم والقومية:

تقوم الفكرة القومية على مبادىء وأسس، وهي: اللغة، والتاريخ، والأرض، والعرق، فأي قوم تجمعهم هذه الخصال فلهم الولاء القومي وحق النصرة، بغض النظر عن المعتقد والدين، لأن الدين والاعتقاد لا اعتبار لهما في نظر الفكرة القومية وعند دعاتها من القوميين، فالقومية هي تكريس للعلمانية الكافرة التي تدعو إلى فصل

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

الدين عن الدولة والحياة.

وعليه فإن القوم الذين تجمعهم اعتبارات القومية ومبادئها يكون طاغوتاً ومعبوداً من دون الله، لأن الولاء والبراء، والحقوق والواجبات تقسم وتعطى على أساس الانتماء إليه، فمن كان من القوم فله الولاء والنصرة وكامل الحقوق وإن كان من أطغى طغاة الأرض، ومن كان من خارج القوم فليس له شيء من ذلك وإن كان من أتقى أهل الأرض!

وباختصار فإن الفكرة القومية توجب ما حرم الله، وتحرم ما أوجب الله، وهذا هو الكفر البواح الذي لا ريب فيه. وبالتالي فإن اعتقادها والانتصار لها هو اعتقاد بالطاغوت وانتصار له.

أما الإسلام فإنه يوجب الموالاة والمؤاخاة على أساس الاعتبار الإيماني الديني العقدي، وجعل التفاضل بين الناس بالتقوى والعمل الصالح، بغض النظر عن لغاتهم وأجناسهم، وديارهم.

كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1]، فهم إخوة وإن اختلفت قومياتهم وجنسياتهم ولغاتهم، وهم بعضهم أولياء بعض، كما قال تعالى: ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[2]. وقال: ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾[3]. فجعل المانع من موالاتهم هو أنهم كفروا وإن كانوا ينتسبون إلى قومية واحدة، بل إلى عائلة واحدة ومن أبوين اثنين.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠٢.

وقال تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾[1]. فهم لا يستوون وإن كانوا من أبناء قومية وجنسية واحدة. وقال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[3]. فجعل التفاضل في التقوى والعمل الصالح.

وفي السنة، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي، وليس كذلك إن أوليائي منكم المتقون، من كانوا وحيث كانوا»[4]. وقال ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى». وقال ﷺ: «إن الله قد أذهب عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام هم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن»[5]. وقال: «إذا رأيتم الرجل يتعزى بعزاء الجاهلية، فأعضوه بِهَنِ أبيه ولا تكنوا»[6].

---

(١) سورة القلم، الآية: ٣٥.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٨

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» وصححه الشيخ ناصر في التخريج.

(٥) رواه أحمد، وأبو داود، صحيح الجامع: «١٧٨٧».

(٦) رواه أحمد، والترمذي، صحيح الجامع: «٥٦٧». قال ابن الأثير في النهاية: التعزي الانتماء والانتساب إلى القوم. فأعضوا بهن أبيه: أي قولوا عض أير أبيك له.

وقال: «من ادعى دعوى الجاهلية فإنه جثا جهنم»[1]، فقال رجل: يا رسول الله: وإن صلّى وصام؟ فقال: «وإن صلّى وصام، فادعوا بدعوى الله التي سماكم: المسلمين، المؤمنين، عباد الله»[2].
وقال: «ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية»[3].

وكل دعوى غير دعوى الإسلام فهي دعوى جاهلية، وكل رابطة تقوم على غير رابطة الإيمان والعقيدة فهي رابطة جاهلية يجب نبذها وبغضها والترفع عنها...

. وما قلناه في القومية يقال في القبيلة أو العشيرة التي تعقد التناصر والولاء بين أفرادها على أساس الانتماء إلى القبيلة بغض النظر عن الدين وسلامة الاعتقاد، بحيث كل من ينتمي إلى القبيلة أو العشيرة ويقر بنظامها وعاداتها يجب أن يُعطى من الولاء والنصرة ـ وإن كان كافراً ـ ما لا يعطاه ابن قبيلة أو عشيرة أخرى وإن كان من المسلمين المؤمنين.

وبذلك تكون القبيلة ـ ونظامها ـ في نظر أبنائها إلّهاً مطاعاً من دون الله، فالذي توجبه القبيلة تطاع فيه وإن كان في الشرع محرماً، والذي تنهى عنه تطاع فيه وإن كان في الشرع واجباً، وهذا عين الكفر والشرك كما قال تعالى: ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾[4].

---

(١) جثا جهنم: أي من جماعات جهنم.
(٢) صحيح الترغيب والترهيب: «٥٥٣».
(٣) صحيح سنن النسائي: «١٧٥٦».
(٤) سورة الأنعام: ١٢١.

ومن صور الولاء المعهودة عند بعض القبائل والعشائر تماجدهم وتفاخرهم بالأجداد والآباء بغض النظر عن استقامتهم وسلامة دينهم، وهذا مما لا شك فيه أن الإسلام قد نهى عنه، وحذر منه أشد التحذير.

كما في الحديث، أن النبي ﷺ قال: «انتسب رجلان على عهد موسى، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان، حتى عدَّ تسعة، فمن أنت لا أم لك؟ قال: أنا فلان بن فلان ابن الإسلام، فأوحى الله إلى موسى أن قل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم في النار، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة»[1].

فمن كان منتسباً ومتفاخراً ولا بد، فلينتسب إلى الإسلام وإلى من كان منتسباً إلى الإسلام. ورحم الله القائل:

أبـــي الإســـلام لا أب لـــي ســـواه
إن افتخـــروا بقيـــس أو تميـــم[2]

١٢ ـ الإنسانية:

عندما تصبح «الإنسانية» شعاراً يعقد عليه الولاء والبراء، وتقدم في سبيله القرابين والأرواح، وعلى أساسه يُعلن الحرب أو السلم، فالإنسانية بهذه الصورة تعتبر طاغوتاً يعبد من دون الله.

---

(١) رواه أحمد، والنسائي، والطبراني، صحيح الجامع: «١٤٩٢».
(٢) عن كتابنا صفة الطائفة المنصورة، ٧٥.

والإنسانية ـ كما تُقدم للشعوب في هذا العصر ـ تعني أن الناس كلهم سواسية في الحقوق والواجبات، وإن اختلفت انتماءاتهم الدينية والعقدية، فيستوي فيها أتقى الناس وأحسنهم خلقاً مع أفجر الناس وأكفرهم، ولا فرق بينهما ما داما ينتميان إلى الأصل البشري الإنساني[1]. وهذا قول معلوم من الدين بالضرورة بطلانه، ولا يقول

---

(١) دعوى الإنسانية زعم لا حقيقة له في الواقع، يُظهر ذلك أمرين:
أولهما: وهو واقع الأمم والشعوب الكافرة، حيث أن الأحداث أثبتت أن غير المسلمين ينطلقون في تحديد مواقفهم من خلال مصالحهم المادية والذاتية ومفاهيمهم وتفسيراتهم الدينية المنحرفة، ولا اعتبار عندهم للإنسانية مطلقاً، وما جرى ويجري في فلسطين، والبوسنة والهرسك، والشيشان، وأفغانستان وغيرها من البلدان التي قُتلت فيها الإنسانية أبشع قتلة على مرأى ومسمع جميع الناس، لهو أكبر دليل على صحة ذلك.
أما الثاني: فإن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قد دل دلالة قطعية أن اليهود والنصارى ومن لف لفهما من الكفار والمنافقين لا يزالون في مكر وقتال للمسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا، كقوله تعالى: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا﴾، وقوله: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾، وقوله: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾. فأين اعتبار الإنسانية كما يدعون؟!
إذاً ما الغاية وما المراد من رفع شعار الإنسانية وغيره من الشعارات كالقومية والعلمانية، والوطنية وغيرها، وترويجها بين المسلمين؟
والجواب على ذلك أجمله في نقطتين:
الأولى: أن الغاية من رفع هذه الشعارات صرف المسلمين عن دينهم =

به إلا كافر مارق من الدين، لأن مفاده مساواة سيد الخلق محمد بن عبد الله ﷺ مع رأس الكفر والضلال أبي جهل.

ومن غلو القوم في «الإنسانية» أنهم جعلوها غاية لكل عمل يقومون به، فلو أن أحدهم يقوم بأي عمل من الأعمال الخيرة فهو يقول بها في سبيل الإنسانية؛ فلو تبرع بشيء من ماله فهو يتبرع للإنسانية وفي سبيل الإنسانية، ولو قاتل فهو يقاتل في سبيل الإنسانية، ولو قُتل فهو يُقتل في سبيل الإنسانية، وهكذا كل شيء

وعقيدتهم رمز قوتهم ومنعتهم، وعن الولاء والبراء في الله الذي يقوم على اعتبار العقيدة والدين، واستبداله بولاءات جاهلية باطلة هزيلة لا تقدر على القيام بوجه المخاطر والتحديات التي تواجه الأمة.

أما النقطة الثانية: فهي ليسهل عليهم غزو الأمة في جميع جوانب حياتها الفكرية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق أهدافهم من غير أن يجدوا أدنى مقاومة، فالأمة التي تفقد العقيدة التي توالي فيها وتعادي عليها، يسهل غزوها واستعمارها، والأمة التي لا تفرق بين الكافر والمؤمن، يهون عليها أن يستعمرها ويملو ديارها العدو الكافر.

وحقيقة ثالثة: أن المشركين إذا ذكر الله وحده، وخُص بالعبادة دون غيره، اشمأزت قلوبهم، وكرهوا ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾، وقال: ﴿كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾. فالتوحيد يؤذيهم ويغيظهم، ووجوههم تكفهر، وقلوبهم تشمئز وتتغير على الموحدين. ولا شيء يسرهم كالإشراك بالله تعالى، هذا ملاحظ عليهم عندما يصرف المرء أعماله ويجعلها في سبيل الله والوطن، والإنسانية، والعروبة وغير ذلك من عبارات الشرك، فإنهم سرعان ما يستبشرون به خيراً، وتنشرح صدورهم له، ويجعلونه من المقربين، وينظرون إليه نظرة استحسان وتقدير، وأنه غير متزمت ومتطرف..!!

يقوم به فهو في سبيل الإنسانية المزعومة، فالإنسانية إله يعبد عندهم من دون الله.

١٣ ـ الشعب:

عندما يكون الشعب مصدر السلطات بما في ذلك السلطة التشريعية، ويكون له الأمر والاختيار فيمن يحكم البلاد، والقانون الذي يطبق في الأرض، حتى ولو وقع اختياره على قانون الجاهلية فيطبق نزولاً عند رغبة وإرادة الشعب!!

فالشعب في هذه الصورة طاغوت ومعبود من دون الله، وذلك من أوجه:

منها، رد السلطة التشريعية إليه، وجعله نداً لله تعالى في خاصية الحكم والتشريع، وقد تقدمت الأدلة على هذا النوع من الإشراك.

يقول سيد قطب رحمه الله: والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم[1] فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله؛ ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته، إنما مصدر الحاكمية هو الله. وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة، فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده، والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه، أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية،

(١) لكن ليس لها أن تعطيه شرعية مزاولة الحكم بغير شريعة الله، كما ليس لها أن تختار الحاكم الكافر المرتد ليحكم البلاد والعباد ثم تنز عليه.

وما أنزل الله به من سلطان[1].

ومنها، طاعته لذاته في معصية الله، والنزول عند رغبته فيما يشير ويحكم، وإن أشار وأمر بالكفر البواح. . . !!

ومنها، تقديم إرادة الشعب على إرادة الله تعالى، والنظر إلى الشعب على أنه سلطة عليا ترد إليه المنازعات عند الاختلاف[2]، يجب التسليم لحكمه من غير تعقيب أو تقديم، وهذه هي الإلّهية والربوبية التي لا تجوز إلا لله رب العالمين.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ١٩٩٠.

(٢) وهذا ملاحظ عند حصول خلاف بين الحاكم ومعارضيه، فإنه سرعان ما يهدد كلٌّ منهما الطرف الآخر بالرجوع إلى الشعب والتحاكم إليه. . !!
وهذا معارض ـ كما هو معلوم ـ لقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾. سورة النساء: ٥٩.
قال ابن القيم في تفسير هذه الآية، في كتابه أعلام الموقعين (١/ ٤٩):
نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دِقّه وجله، جليّه وخفيّه، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافياً لم يأمر بالرد إليه، إذا من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع.
ومنها أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ، هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته.
ومنها أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان، ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر.
ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكّم الطاغوت وتحاكم إليه اهـ.

تنبيـــه:

اعلم أن حكم الشعب ليس حكم الله وإن حكم بشريعة الإسلام وأصاب الحق، وذلك من وجهين:

أولهما: أن تطبيق شريعة الإسلام هو في الحقيقة نزول عند رغبة الشعب وإرادته، وليس انصياعاً لأمر الله وإرادته، بدليل أن الشعب لو اختار فيما بعد الحكم بشريعة غير شريعة الإسلام، فإنها تُطبق وتحل محل شريعة الإسلام من غير إنكار أو اعتراض من أحد، لأن الجميع قد تعارفوا فيما بينهم على أن الحكم للشعب، وأن مرد الأمر له، فله أن يحكم ما يشاء بما يشاء... !!

أما الوجه الثاني، فقد تقدم أن قضية الحكم والتحاكم هي من الله إلّهية وربوبية، ومن العباد عبودية وطاعة وتوحيد، فالغاية العظمى من قضية التحاكم إلى شرع الله هي تحقيق عبودية العباد لله تعالى في هذا الجانب، وهذا لا يتحقق جراء الحكم بما أنزل الله طاعة للشعب ونزولاً عند إرادته ورغبته، بل يتحقق العكس وهو عبادة الشعب من دون الله، لأن التحاكم في حقيقته يكون إلى الشعب وليس إلى الله كما تقدم.

يقول سيد قطب رحمه الله: فالناس ليسوا هم الحكَم في الحق والباطل، وليس الذي يقرره الناس هو الحق، وليس الذي يقرره الناس هو الدين.. إن نظرة الإسلام تقوم ابتداء على أساس أن فعل الناس لشيء وقولهم لشيء، وإقامة حياتهم على شيء لا تحيل هذا الشيء حقاً إذا كان مخالفاً للكتاب، ولا تجعله أصلاً من أصول

الدين، ولا نجعله التفسير الواقعي لهذا الدين، ولا نبرره لأن أجيالاً متعاقبة قامت عليه . . .

ولا يكفي إذن أن يتخذ البشر لأنفسهم شرائع تشابه شريعة الله أو حتى شريعة الله نفسها بنصها إذا هم نسبوها لأنفسهم ووضعوا عليها شاراتهم ولم يردوها لله، ولم يطبقوها باسم الله إذعاناً لسلطانه واعترافاً بألوهيته وبتفرده بهذه الألوهية، التفرد الذي يحرر العباد من حق السلطان والحاكمية إلا تطبيقاً لشريعة الله وتقريراً لسلطانه في الأرض[1].

١٤ ـ الأكثرية في بعض صورها:

من إفرازات الديمقراطية ـ التي أصبحت ديناً متبعاً لكثير من الناس ـ اعتماد حكم الأكثرية مطلقاً، والرضى باختيارها أياً كان نوعه، سواء وافق الحق أم غير ذلك. فحكم الأكثرية ـ في نظر القوم ـ نافذ وواجب الاتباع ولو كان مؤداه إلى مخالفة حكم الله ورسوله!!

ولا شك أن الأكثرية في هذه الصورة المتبعة تعتبر طاغوتاً ونداً يعبد من دون الله تعالى.

وعبادتها تكمن من جهة التحاكم إليها، والإقرار لها بخاصية الحكم لذاتها وطاعتها في ذلك، وكذلك التعامل معها على أنها جهة عليا لا يجوز رد حكمها أو التعقيب عليه بشيء من الاعتراض أو عدم الرضى.

وهذا ـ كما تقدم ـ لا يجوز صرفه إلا لله تعالى وحده، فالله هو

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن: ٢/ ٣٢ و ١٨٩.

الحكَم وله الحكم وحده، وهو الذي لا يجوز التعقيب على حكمه بشيء من الاعتراض أو التقديم الذي ينم عن عدم الرضى والتسليم.

١٥ ـ المجالس النيابية (مجلس الشعب):

من جرأة القوم على الله أنهم خصصوا لأنفسهم ولشعوبهم مجالس تشريعية وسموها مجالس نيابية أو مجالس الشعب، وظيفتها التشريع وسن القوانين للناس من غير سلطان من الله.

وهذه المجالس وكل واحد من أعضائها طاغوت كبير[١]، قد نصب من نفسه نداً لله تعالى في أخص خصائصه سبحانه وتعالى ألا وهي خاصية التشريع والحكم.

وكون هذه المجالس بأعضائها طاغوتاً، فهو لعبادتها من جهة الإقرار لها بخاصية التشريع وطاعتها واتباعها في ذلك، والنظر إلى ما يصدر عن هذه المجالس الطاغوتية أنه فوق التعقيب أو الاعتراض والرد..!!

ونصيحتنا للمسلمين ولكل من يعز عليه دينه: أن لا يقترب من

---

(١) جمعتني إحدى المناسبات مع أحد النواب، وكان ينظر ويتبجح، ويتكلف الحركات والكلمات، وينظر إلى الناس كيف ينظرون إليه نظرة إعجاب وتقدير على أنه نائب وممثل للشعب!!، فبادرته السؤال: أي فلان، ما هي وظيفتك في مجلس النواب؟ فأجاب من غير تردد: وظيفتي التشريع، فأنا مشرع..! فقلت له: إذاً أنت إله؟ ألا تعلم أن التشريع من أخص خصوصيات الله تعالى، ومن ادعى خاصية التشريع لنفسه فقد ادعى الإلهية والربوبية اختصاصاً وعملاً، وقال كما قال فرعون من قبل: ﴿ما علمت لكم من إله غيري... أنا ربكم الأعلى﴾، فبهت الرجل وما كاد ينطق.

هذه المجالس الطاغوتية بشيء، وأن لا يكون سبباً في دفع أحدٍ إليها فإنما هو يدفعه إلى النار.. ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[1]، وهذا من أعظم الإثم والعدوان.

كما يجب عليه أن لا يقر بشرعيتها فإنما هي طاغوت، يجب عليه الكفر بها والتبرؤ إلى الله منها.

ولا يغرنكم ما يقال لكم عن حسنات دخول هذه المجالس الطاغوتية، وما يترتب على دخول المغرورين من مصالح، فإنما هو نفخ من نفخ الشيطان وتزيين من تزيينه لإضلالكم وإغوائكم وصدكم عن دينكم، واعلموا أن جميع ما يُذكر لكم من حسنات لا تبرر مزلقاً عقدياً واحداً من المزالق العقدية الكثيرة الحاصلة جراء دخول هذه المجالس[2]، فسلامة الدين أعظم المقاصد والمصالح، وأعظم ما جاء في الدين التوحيد.. فلا تفرطوا به لثمن بخس لا يقدم ولا يؤخر، فتخسروا دنياكم وآخرتكم.

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾[3].

١٦ ـ مجلس الأمم المتحدة:

هو طاغوت ومعبود من دون الله، وذلك من أوجه:

منها، أنه مجلس لا ضابط له من الكتاب والسنة، وإنما يخضع

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٢١.
(٢) انظر إن شئت كتابنا حكم الإسلام في الديمقراطية.
(٣) سورة هود، الآية: ٨٨

لأهواء ومصالح وأحقاد قوى الكفر العالمية . . .

ومنها، أنه مجلس تشريعي، يصدر التشريعات المضاهية لشرع الله . . .

ومنها، إنه المجلس الذي تتحاكم إليه وإلى قوانينه ـ من دون الله ـ الدول والشعوب عند حصول المنازعات والخلافات فيما بينها . .

ومنها، أنه مطاع لذاته فيما يصدر عنه، وقراراته ملزمة للشعوب والأمم، وإن كانت ظلماً وجوراً وكفراً، فكم من باطل أحاله إلى حقّ، وكم من حقّ أحاله إلى باطل بقراراته الباطلة الظالمة . . . ؟!

ومنها، أن الدول والشعوب يتعاملون مع هذا المجلس الطاغوت، على أنه فوق المساءلة، أو التعقيب والاعتراض، فكل ما يصدر عنه واجب التنفيذ والقبول . . !!

فأي طاغوت يُعبد من دون الله أشد ظلماً وطغياناً من هذا الطاغوت، ومع ذلك فالناس لا يرون حرجاً في الاعتراف بشرعيته، وفي التحاكم إليه من دون الله . . !!

ونحوه كل مجلس يحمل صفاته أو بعضها فإنه طاغوت يدعي الإلّهية ويعبد من دون الله. وإنما اكتفينا بذكر «مجلس الأمم» الطاغوت الأكبر لظهور طغيانه على جميع الأمم والشعوب، وليقيس عليه القارىء بقية المجالس ويحكم عليها من تلقاء نفسه.

١٧ ـ الأحزاب في بعض صورها:

عندما تطاع الأحزاب لذاتها؛ بمعنى كل ما يصدر عن الحزب من قرارات وأفكار فهي تنال القبول والطاعة عند أفراده لكونها صادرة

عن الحزب وقادة الحزب، ولو كانت مخالفة للحق. . !!

عندما يُعقد الولاء والبراء في الحزب؛ بحيث من ينتمي إلى الحزب ـ وإن كان فاسقاً ظالماً ـ يُعطى من الولاء والود والنصرة ما لا يعطاه من هو خارج الحزب أو ينتمي إلى حزب آخر، ولو كان مسلماً تقياً عدلاً، وهو أصلح من الأول. . !!

عندما يُنصر الحزب في الباطل كما يُنصر في الحق، تعصباً للحزب ولقادة الحزب[1]. . !

عندما تكون الأحزاب في هذه الصورة، فهي طاغوت يعبد من دون الله، والدخول في أحزاب هذه صفاتها هو دخول في أحزاب طاغوتية وإن تسمت بأسماء إسلامية وزعمت أنها تعمل للإسلام. . .

قال ابن تيمية رحمه الله: كون الأستاذ يريد أن يوافقه تلميذه على ما يريد، فيوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه مطلقاً. وهذا حرام ليس لأحد أن يأمر به أحداً، ولا يجيب عليه أحد بل تجمعهم السنة وتفرقهم البدعة[2] يجمعهم فعل ما أمر الله به ورسوله، وتفرق بينهم

---

(١) من غلو القوم في الأحزاب أنهم لا يقبلون الحق ويأخذون به إلا إذا كان صادراً عن الحزب وقادة الحزب، أما إذا جاءهم الحق من غير طريق الحزب، فهو لا ينال عندهم القبول كما لو جاء عن طريق حزبهم، هذا إذا ما قابلوه بالرد والاستهانة والإعراض، وهذا من أشنع ما يؤخذ على كثير من الأحزاب المعاصرة!!

(٢) البدعة التي تفرق هي التي تكون أشد إثماً وضرراً من وزر التفرق؛ لأن وحدة المسلمين أصل من أصول الدين فقد تضافرت على وجوبه أدلة الكتاب والسنة لا يُفرط به إلا لأصل أعظم منه وأوكد، ولا أراه سوى التوحيد الذي ترخص في سبيله جميع الأصول، وهذا ما يقتضيه قوله ﷺ: =

معصية الله ورسوله.

ومن حالف شخصاً على أن يوالي من والاه ويعادي من عاداه كان من جنس التتر المجاهدين في سبيل الشيطان، ومثل هذا ليس من المجاهدين في سبيل الله تعالى، ولا من جند المسلمين، ولا يجوز أن يكون مثل هؤلاء من عسكر المسلمين، بل هؤلاء من عسكر الشيطان. ولكن يحسن أن يقول لتلميذه: عليك عهد الله وميثاقه أن توالي من والى الله ورسوله[1]، وتعادي من عادى الله ورسوله، وتعاون على البر والتقوى ولا تعاون على الإثم والعدوان[2].

١٨ ـ ما عبد من صنم، أو حجر، أو بقر، أو قبر، أو صورة، أو صليب:

فكل ما يُعبد من هذه الأشياء ـ من دون أو مع الله ـ فهو طاغوت. فإن قال قائل: هذه الأشياء أتفه من أن تُعنى في البحث، لأنه لا يوجد من يعبدها أو يتوجه إليها بشيء من معاني ومجالات العبادة، وبخاصة أننا في عصر العلم والنور، والعقل والتكنولوجيا كما يقولون.

= «وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»، فالخروج على الحاكم فتنة، ولكن الأشد منه فتنة وضرراً السكوت عليه والرضى به وهو يعلن الكفر البواح، فالشرك ظلم لا يعلوه ظلم، وفتنة لا تعلوه فتنة، والواجب في هذه الحالة وأمثالها: أن يقدم الأقل ضرراً ليدفع به الأشد ضرراً، والله المستعان.

(١) فيه رد على من يُبطل شرعية التعاهد وأخذ المواثيق على المشروع في دين الله، بحجة أنها بيعات استثنائية!!

(٢) فتاوى: ٢٨/١٩ ـ ٢٠.

ولهذا وأمثاله نقول: لو أمعنتم النظر في حياة وواقع الشعوب والأمم لأدركتم أن أكثر من ثلثي أهل الأرض يعبدون هذه الأشياء التافهة من دون الله!!

فانظر في الصين ـ الذي يزيد عدد سكانها على المليار نسمة ـ وفي اليابان وكثير من بلاد آسيا.. فسوف تجد أن الناس وثنيون، يعبدون الأوثان والأصنام والتصاوير..!

وفي القارة الهندية، فإن أكثر الناس يعبدون البقر والأصنام والمشاهد..!!

وفي أوربا الصليبية، فإن كنائسهم ومعابدهم مليئة بالتماثيل والأصنام والصور والصلبان التي تعبد من دون الله؛ فعيسى عليه السلام اتخذوا له أصناماً وصوراً يعبدونها من دون الله، وأمه مريم عليها السلام اتخذوا لها أصناماً وصوراً يعبدونها من دون الله، وكذلك كبراء أحبارهم ورهبانهم فإنهم قد اتخذوا لهم التماثيل والصور التي يعبدونها من دون الله!!

وأخيراً أحدثوا صنماً جديداً يعبدونه من دون الله، وهو «بابا نويل» الذي يأتيهم بالخير كما زعموا، وكذلك شجرة الميلاد التي يصنعونها على رأس كل سنة فإنهم يعظمونها ويقدسونها ويحتفلون بها أيما احتفال، وهكذا لم يعد غريباً عليهم أن يفاجئونا في كل عام بوثن جديد تباركه أحبارهم ورهبانهم، فيعبدونه من دون الله!!

ومن يتأمل عبادة النصارى ـ على اختلاف مذاهبهم وفِرَقهم ـ وما أحدثوه من طقوس دينية، يدرك أنهم أقرب إلى الوثنية من كونهم أهل كتاب.

وإذا أردت أن تتحدث عن المشاهد والقبور التي تعبد من دون الله في أمصار المسلمين، فحدُث ولا حرج، فما من بلد إلا وفيها عدد من القبور التي تُعبد ويُشد إليها الرحال، وطواغيت الحكم يحمونها بقوة السلاح!!

ومما يدخل في ذلك الأصنام والتماثيل التي نُصبت لحكام ورؤساء طواغيت، وبأحجام ضخمة ومختلفة على مداخل المدن ومفارق الطرق..!

وكذلك مشهد الجندي المجهول، حيث لا أصل له ولا وجود، ومع ذلك يأتيه القوم ـ بحرسهم وحشمهم ـ ومعهم باقات الورد والزهور يضعونها عليه بخشوع، ثم يقرأون عليه ما تيسر من القرآن..!!

ونحو ذلك العلَم الذي يُصمد له، وتُنصب له القامات وتُقدم التحية والمعازف، والويل كل الويل لمن يتحرك أو يحك رأسه أو ما بين فخذيه..!!

فهذه كلها طواغيت تعبد من دون الله ولو في وجه أو مجال من مجالات العبادة.

١٩ ـ الديمقراطية:

الديمقراطية دين له نظرته الخاصة عن الوجود والحياة والإنسان، وهو تكريس للعلمانية التي تقوم على مبدأ فصل الدين عن الدولة والحياة، وأن ما لله لله؛ وهو المساجد والكنائس والزوايا والمعابد. وما لقيصر لقيصر وهو كل ما تبقى من شؤون الحياة ومجالاتها العامة والخاصة!

وأن لقيصر حرية التدخل بخصوصيات الله تعالى إن اقتضت المصلحة العامة ذلك، وليس لله أن يتدخل بخصوصيات قيصر، وأي محاولة تكون بخلاف ذلك فهي سرعان ما تواجه بتهمة تسييس الدين، وإدخال الدين في السياسة أو العكس، وتهمة ترويج الأصولية والإرهاب..!!.

﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾[1].

ومن إفرازات الديمقراطية، أن الشعب يحكم نفسه بنفسه؛ أي أن المشرع المطاع في نظر الديمقراطية هو الإنسان وليس الله..!

ومنها، حرية الاعتقاد، ولو كان مؤداه إلى الارتداد عن الدين..!

ومنها، حرية التعبير، وإن كان مؤداه إلى الطعن بدين الله تعالى والتهكم به، حيث لا مقدس ـ في نظر الديمقراطية ودعاتها ـ فوق النقد والتعقيب أو السؤال والاعتراض عليه..!

ومنها، الحرية الشخصية بمدلولها الإباحي البهيمي؛ فللمرء ـ في ظل الديمقراطية ـ أن يفعل ويمارس ما يشاء، ما لم يخالف ذلك قوانينهم الوضعية..!

ومنها، اعتماد رأي الأكثرية، وتقديس ما تذهب إليه ولو كان باطلاً..!

---

1) سورة الأنعام، الآية: ١٣٦.

ومنها، اعتماد مبدأ التصويت والاختيار في كل شيء ومهما سمت قداسته، ولو كان ذلك دين الله تعالى!!

ومنها، مساواة أصلح الناس وأعلمهم مع أفسد الناس وأجهلهم في تقرير مصير من يحكم البلاد والعباد..!!

ومنها، اعتماد النظام الرأسمالي وشذوذاته في الاقتصاد..!

ومنها، حرية تشكيل الأحزاب والتجمعات السياسية وغيرها، أياً كانت عقيدة وأفكار وشذوذات هذه الأحزاب والتجمعات[1]..!

فواضح أن المعبود المطاع في نظر الديمقراطية ودعاتها هو الإنسان وما يهواه، ومن غلو القوم في هذا الدين الجديد، أنهم يوالون ويعادون عليه، ويقاتلون ويسالمون عليه، فمن دخل فيه سالموه ووالوه، ومن أبى حاربوه وعادوه!

فالديمقراطية طاغوت تفرز طواغيت تعبد من دون الله، ومع ذلك فالناس يدخلون فيها كدين[2]، ويحتكمون إليها، ويثنون عليها خيراً

---

(١) انظر إن شئت كتابنا «حكم الإسلام في الديمقراطية»، فقد ناقشنا فيه هذه الأسس والمبادىء التي تقوم عليها الديمقراطية من منظور الشرع، وبيّنا الدليل على كفرها وبطلانها.

(٢) من عجائب القوم أنهم يتحرجون الدخول في الديانة اليهودية أو النصرانية، بينما لا يجدون حرجاً في الدخول في دين الديمقراطية، أو دين الاشتراكية، أو دين الشيوعية والعلمانية، أو في دين غيرها من الأحزاب التي تقوم على مبادىء وأسس كفرية.. علماً أن هذا دين وهذا دين، وهذا باطل، والآخر أشد بطلاناً وكفراً من الأول؛ لأن الأول له أصل سماوي والآخر أصله يستند إلى عقول الرجال وأهوائهم..!!

من غير أن يعبدوا حرجاً، وهذا النذر لم يسلم منه إلا من رحمه الله، وهم قليل!

٢٠ ـ كل ما يعبد من دون الله:

اعلم أن الطواغيت التي تعبد من دون الله في هذا الزمان قد تعددت واختلفت أنواعها وصورها وأشكالها، وهي أكثر من أن تحصر في كتاب، لذا فإننا نعيدك إلى الضابط والتعريف الذي يعينك على معرفة الطواغيت ممن لم نذكرهم لك، وهو: أن كل ما عبد من دون الله ولو في وجه أو مجال من مجالات العبادة ـ وهو راضٍ بذلك ـ[1] فهو طاغوت، يتعين عليك اجتنابه والكفر به.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: الطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة، منهم: الذي يُعبد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة، والدليل قوله تعالى: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾[2].

والطواغيت التي ذكرناها لك تعتبر عناوين عامة رئيسة يندرج تحتها جميع الطواغيت، وهي كذلك تعينك على معرفة بقية الطواغيت ـ الظاهرة منها والخفية[3] ـ بالقياس عليها والمقارنة بها.

---

(١) إذا كان المعبود من الجمادات أو الحيوانات أو النباتات لا يستلزم له هذا القيد أو الشرط، وإنما وضعه أهل العلم ليُخرجوا به الأنبياء والملائكة والصالحين الذين يُعبدون من قبل جهلة الناس، من دائرة الطاغوت ومسماه وما يجري عليه من أحكام.

(٢) مجموعة التوحيد: ٩.

(٣) من الطواغيت الخفية التي يغفل عنها كثير من الناس: العادات والأعراف =

وبعد: فهذه طواغيت العالَم بين يديك لتحذرها وتجتنبها وتكفر بها وتُحذِّر منها، ثم لو تأملتها وتأملت حال الناس معها لرأيت أن أكثر الناس قد عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعة الله إلى طاعة الطاغوت، وعن عقد الولاء والبراء في الله إلى عقده في الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله ورسوله إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن الدخول في دين الله إلى الدخول في دين الطاغوت وحزبه.. وإن تسموا بأسماء إسلامية وزعموا أنهم مسلمين، فلسان الحال يبطل لسان المقال.

وهذا يستدعي من الدعاة أن يستيقظوا من ثباتهم وأن يتعرفوا على حجم المشكلة، وعلى الهوة الواسعة بين الناس وحقيقة هذا الدين، ليعرفوا كيف يبدأوا أقوامهم والناس من حولهم، وبماذا يبدأوهم.. لعلَّ الله أن يبدل حالنا إلى أحسن حال، إنه تعالى على ما يشاء قدير.

وإليك الآن بعض المسائل التي تتعلق بفقه التعامل مع الطاغوت:

١ ـ الكفر بالطاغوت شرط لصحة التوحيد والإيمان:

اعلم أن أعظم ركن في الإسلام جاءت به الرسل هو الإيمان بالله

السائدة المخالفة لشرع الله، والتي لا يمكن للجاهلين أن ينفلتوا منها أو من الرجوع إليها عند حصول المناسبات وغيرها. ومنها عالم الموضة والأزياء وأربابها الذين يفرضون على الشعوب أن يعيشوا إرهاصاتهم وانجازاتهم وشذوذاتهم المنحرفة، ومنها الجنس وما يلحق به من أفلام الدعارة وغيرها. ومنها الكرة معبودة الشعوب، وكم هي الدماء التي تسيل في سبيلها انتصاراً لفريق دون فريق، وكم من رجل قد طلق زوجته لأنها تؤيد غير الفريق الذي يؤيده هو!. ومنها نجوم الغناء الذين يسمونهم =

تعالى وحده والكفر بالطاغوت، وهو غاية الرسل والرسالات، وأول ما يجب على العبد القيام به نحو ربه قبل الصلاة والصيام والزكاة وحج بيت الله الحرام، وغير ذلك من الطاعات، فلا يصح إيمان إلا بعد الكفر بالطاغوت، ولا يقبل عمل إلا بعد الكفر بالطاغوت، ولا يُعصم دم إلا بعد الكفر بالطاغوت.

قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾[1]. فهي المهمة الأولى لجميع الرسل بلا استثناء.

وقال تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾[2].

فتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله تعالى، له دلالات عظيمة، منها: عدم الاستهانة بقضية الكفر بالطاغوت، وبيان أنه أصل هام تبنى عليه بقية الأصول والفروع.

ومنها، أنه لا بد من أن يسبق الإيمانَ الكفرُ بالطاغوت، ولو قُدم الإيمان على الكفر بالطاغوت فإن الإيمان لا ينفع صاحبه في شيء إلا بعد الكفر بالطاغوت والتخلي عن الشرك.

ومنها، أن الإيمان بالله والإيمان بالطاغوت لا يمكن اجتماعهما في قلب امرئٍ واحدٍ ولو لبرهة واحدة، فإن الإيمان بأحدهما يستلزم

= قوانين.. فلو تأملت هذه الطواغيت ـ الظاهرة الخفية ـ لوجدت أنها تعبد من دون الله ولو في وجه من أوجه العبادة.

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

انتفاء الآخر. كما في الحديث: «لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب واحد»[1]، فإما إيمان بالله يتقدمه كفر بالطاغوت، وإما إيمان بالطاغوت وكفر بالله تعالى، وافتراض اجتماعهما هو افتراض اجتماع الشيء وضده في آن واحد.

وفي معنى «العروة الوثقى» قال بعض أهل العلم: العروة الوثقى يعني الإيمان، وقال بعضهم: يعني الإسلام، وقال بعضهم: يعني لا إله إلا الله، وهذه أقوال متقاربة كلها صحيحة لا تنافي بينها[2].

مفهوم الآية يقتضي أن من آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت، أو كفر بالطاغوت ولم يؤمن بالله لا يكون قد استمسك بالعروة الوثقى وشهد أن لا إله إلا الله.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»[3].

قال محمد بن عبد الوهاب: فقوله: وكفر بما يعبد من دون الله تأكيد للنفي، فلا يكون معصوم الدم والمال إلا بذلك، فلو شك أو تردد لم يعصم دمه وماله.

واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمناً بالله إلا بالكفر بالطاغوت، والدليل قوله تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾، الرشد دين

---

(١) السلسلة الصحيحة: «١٠٥٠».

(٢) انظر تفسير ابن كثير.

(٣) رواه مسلم.

محمد ﷺ، والغي دين أبي جهل، والعروة الوثقى شهادة لا إله إلا الله وهي متضمنة للنفي والإثبات تنفي جميع أنواع العبادة عن غير الله وتثبت جميع أنواع العبادة كلها لله وحده لا شريك له[1].

وقال أبو محمد المقدسي: وهذا الأمر أعظم عروة من عرى الإسلام، لا تقبل دعوة ولا جهاد ولا صلاة، ولا صيام ولا زكاة ولا حج إلا به، ولا يمكن النجاة من النار دون التمسك به، إذ هو العروة الوحيدة التي ضمن الله تعالى لنا ألا تنفصم، أما ما سواها من عُرى الدين وشرائعه فلا تكفي وحدها دون هذه العروة للنجاة، قال تعالى: ﴿قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾.

تأمل كيف قدَّم الله الكفر بالطاغوت واجتنابه في الذكر على الإيمان به، والإنابة إليه سبحانه، تماماً كما قدم النفي على الإثبات في كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وما ذلك إلا تنبيهاً على هذا الركن العظيم من هذه العروة الوثقى، فلا يصح الإيمان بالله ولا ينفع إلا بالكفر بالطاغوت أولاً[2].

٢ ـ حكم من يقول لا إله إلا الله لكنه لم يكفر بالطواغيت:

من يقول لا إله إلا الله لكنه لم يكفر بالطاغوت، هو كمن يقول

---

(١) مجموعة التوحيد: ١٠ ـ ٣٥.

(٢) عن كتاب «الديمقراطية دين»، لأخينا المجاهد أبي محمد حفظه الله وعجل فك أسره، وقد مضى على اعتقاله في سجون الطاغوت ما يزيد على ثلاث سنوات، لا ذنب له سوى أنه صاح في القوم: إن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت..!!

بالشيء وضده في آن واحد، وبالشيء وعدمه، فإن لا إله إلا الله تتضمن الكفر بالطاغوت في جانب النفي منها، فمن لا يكفر بالطاغوت مثله مثل من يقول: لا إله إلا الله ثم من جهة أخرى ـ بلسان المقال أو الحال ـ يقول: هناك إله مع الله!!

وهذا في دعواه التوحيد كذاب منافق زنديق مستهزىء بدين الله، وهو كافر مرتد، وقد تكون ردته مغلظة من جهة تكرار ردته وتهاونه في ذلك، وإليك الأدلة على ذلك:

أما كونه كذاباً، فهو لقوله بالشيء وضده؛ فمن جهة يدعي أنه يكفر بالآلهة جميعها إلا الله، ثم تراه يؤمن بالطاغوت ويعبده من دون الله..!

وأما كونه منافقاً، فهو لجمعه بين الشيء وضده، فمن جهة تراه يزعم بلسانه التوحيد، ثم هو في المقابل يضمر الكفر وعبادة الطاغوت..!

وأما كونه زنديقاً، فهو لجحوده وكفره وأنه عابد للطاغوت، وإذا ما أقيمت الحجة على كفره، فهو سرعان ما ينكر ويتملص بأنه مسلم وأنه يقول لا إله إلا الله..!!

وأما كونه مستهزئاً بدين الله، فهو لإعلانه التوحيد مئات المرات وفي كل مرة لا يبالي في أن يأتي بما ينقض التوحيد ويوقعه في الكفر، فهو سهل عليه أن ينطق بالتوحيد على مدار الساعة من غير أن يجد حرجاً في أن يأتي بضده وبما ينقضه على مدار الساعة..!! فأي تلاعب بدين الله بعد هذا التلاعب، وأي استهانة بعد هذه الاستهانة، وقد أثر عن ابن عباس أن رجلاً أتاه فقال: إني طلقت امرأتي مائة

مرة!! فقال له ابن عباس: هي طالقة منك بثلاث طلقات، وقد هزئت من دين الله بسبعٍ وتسعين طلقة!

وذلك لأنه لم يراعِ حدَّ الله في الطلاق، فكيف إذا بمن يجعل الكفر والإيمان ألعوبة حيث يأتي بالإيمان وضده على مدار الساعة من غير اكتراث أو مبالاة بما يصنع، لا شك أنه أولى بصفة الاستهزاء واللعب والتهكم.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: دين النبي ﷺ التوحيد، وهو معرفة لا إله إلا الله محمد رسول الله، والعمل بمقتضاها، فإن قيل: كل الناس يقولونها، قيل: منهم من يقولها ويحسب معناها أنه لا يخلق إلا الله ولا يرزق إلا الله وأشباه ذلك[1]، ومنهم لا يفهم معناها[2]، ومنهم من لا يعمل بمقتضاها[3]، ومنهم من لا يعقل حقيقتها[4]، وأعجب من ذلك من عرفها من وجه

(١) أي أنه يفسرها بتوحيد الربوبية فقط، وهذا النوع من التوحيد لا ينجي صاحبه، ولا يدخله دائرة الإسلام والإيمان، وحتى يُجرى عليه مسمى الإسلام وحصانته لا بد من أن يضم إليه توحيد الألوهية أو العبودية.

(٢) وهو كافر لأنه لا يعتقدها على حقيقتها، فالاعتقاد من شروطه ولوازمه العلم وفهم المعتقد، لأن جاهل الشيء كفاقده.

(٣) وهذا أيضاً كافر؛ لأن العمل بالتوحيد شرط لصحة الإيمان، ومن أوكد مقتضيات شهادة التوحيد العملية اجتناب الشرك وعبادة غير الله تعالى وهذا لم يفعل لذا فهو كافر، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختلف شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً، فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما أهـ.

(٤) وهذا حكمه كالذي لا يفهم معناها، إلا إذا كان لا يعقلها عن عجز لا يمكن=

وعاداها وأهلها من وجه! وأعجب منه من أحبها وانتسب إلى أهلها ولم يفرق بين أوليائها وأعدائها[1]! يا سبحان الله العظيم أتكون طائفتان مختلفتين[2] في دين واحد وكلهم على الحق؟! كلا والله، فماذا بعد الحق إلا الضلال[3].

وأما كونه كافراً مرتداً، فهو مما لا خفاء فيه؛ حيث هو بعد دخوله الإسلام بشهادة التوحيد التي نطق بها لا يزال عاكفاً على عبادة آلهة أخرى مع الله أو من دونه.

فالشرك محبط للعمل كلياً، كما قال تعالى: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾[4].

أما كون ردته مغلظة بحيث يُقتل من غير استتابة، هو لتلاعبه بالتوحيد وتكرار ردته من غير اكتراث بما يصنع.

قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾[5].

= دفعه، فحينها يُعذر إلى أن يندفع عجزه بقيام الحجة عليه؛ لأن العجز يرفع عن صاحبه التكيف والمؤاخذة ـ باتفاق..

(1) والأعجب من هؤلاء كلهم من يدعي حبها ويدعو إليها، ثم هو يوالي أعداءها على أوليائها، وما أكثر هؤلاء في زماننا..!

(2) هكذا في الأصل، ولعل الصواب (مختلفتان)، فهي صفة للطائفتين وليست خبراً لتكون.

(3) الرسائل الشخصية: ١٨٢.

(4) سورة الأنعام، الآية: ٨٨.

(5) سورة النساء، الآية: ١٣٧.

وقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾[1].

قال ابن تيمية: أخبر سبحانه أن من ازداد كفراً بعد إيمانه لن تقبل توبته، وفرّق بين الكفر المزيد كفراً والكفر المجرد في قبول التوبة من الثاني دون الأول، فمن زعم أن كل كفر بعد الإيمان تقبل منه التوبة فقد خالف نص القرآن[2].

وفي «منار السبيل» لابن ضويان: لا تقبل توبة من تكررت ردته، لأن تكرار ردته يدل على فساد عقيدته، وقلة مبالاته بالإسلام[3].

وعليه: فإن من لم يكفر بالطاغوت لا تنفعه لا إله إلا الله، ولا سائر الأعمال الصالحة من صلاة وحج وزكاة وصيام وغير ذلك، لأنه يأتي بالتوحيد وبما يكذبه في آن واحد!

قال الشيخ ابن باز: والعبودية لله وحده والبراءة من عبادة الطاغوت، والتحاكم إليه من مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله[4].

«فمن نصح نفسه وأهله وعياله، وأراد النجاة من النار، فليعرف شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها العروة الوثقى وكلمة التقوى، لا يقبل

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٠.

(٢) الصارم المسلول، ٣٦٨.

(٣) ٢/٤٠٩.

(٤) رسالة وجوب تحكيم شرع الله.

الله من أحد عملاً إلا بها، لا صلاة ولا صوماً ولا حجاً ولا صدقة ولا جميع الأعمال الصالحة إلا بمعرفتها والعمل بها، وهي كلمة التوحيد وحق الله على العبيد»[1].

٣ ـ صفة الكفر بالطاغوت:

بعد أن عرفت أنه يجب عليك الكفر بالطاغوت، وأن إيمان المرء لا يصح إلا بعد الكفر به، يتعين عليك أن تعرف صفة الكفر بالطاغوت لتمارسه في واقع حياتك العملية، وحتى لا يكون كفرك به مجرد دعوى أو زعماً باللسان من دون عمل، لا تظهر آثاره على الجوارح وفي واقع الحياة، فيطالك قوله تعالى: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[2].

ـ وصفة الكفر بالطواغيت تكون بتكفيرهم..

قال تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون...﴾، فلا بد من مخاطبتهم بصفة الكفر.

وقال تعالى: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾[3]. وهذا وعيد بحق الكافرين.

ـ وتكون بمعاداتهم وبغضهم والتبرؤ منهم وممن يعبدونهم من دون الله...

قال تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه،

---

(١) الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ١٩٢.
(٢) سورة الصف، الآية: ٣.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٩.

إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾[1].

تأمل قوله (بدا) الذي يفيد غاية الظهور والوضوح، وتقديم العداوة التي مكانها الجوارح الظاهرة على البغضاء الذي مكانه القلب، وهذا يدل على أهمية إظهار العداوة والبراءة منهم إظهاراً لا لبس فيه ولا مواربة ولا غموض، إذ لا يكفي إضمار البغضاء لهم في القلب ثم نحن في الظاهر مسالمون لهم متوددون. . . !

ثم تأمل تقديم البراءة من العابدين وشركهم قبل المعبودين، وما ذلك إلا للأهمية؛ فإن البراءة من العابد وشركه يقتضي البراءة من المعبودين دون العكس؛ فإن البراءة من المعبودين لا يستلزم البراءة من عابديهم وما يشركون.

وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾[2]. وقال: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾[3]. وقال: ﴿أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[4].

هذه هي: الأسوة الحسنة التي أمرنا بالاقتداء بها، وهذه هي ملة إبراهيم التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه: ﴿ومن يرغب عن ملة

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
(٢) سورة الزخرف، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٣) سورة الشعراء، الآيات: ٧٥ ـ ٧٧.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٦٧.

إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾[1].

- ويكون الكفر بالطواغيت أيضاً، باجتنابهم واعتزالهم وعدم مخالطتهم..

قال تعالى: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[3].

وقال عن إبراهيم: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾[4].

وقال تعالى: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكُلاً جعلنا نبيا﴾[5]. فما وهبه الله إياه من النبيين الصالحين كان ببركة اعتزاله للطواغيت ومن يعبدونهم من دون الله، ولا أرى للعقيم دواء إن أراد البنين الصالحين، كالتقرب إلى الله باعتزال الطواغيت والكفر بهم.

- ويكون بالاغلاظ عليهم..

قال تعالى: ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.
(٢) سورة الزمر، الآية: ١٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٤) سورة مريم، الآية: ٤٨.
(٥) سورة مريم، الآية: ٤٩
(٦) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.

وقال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[1].

ـ ويكون بجهادهم وقتالهم عند توفر الاستطاعة..

قال تعالى: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم﴾[2]. وأئمة الكفر هم الطواغيت.

وقال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم﴾[3].

ـ ومن لوازم الكفر بالطواغيت انتفاء موالاتهم أو موادتهم، أو الركون إليهم، أو التحالف معهم..

قال تعالى: ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾[4]. فهذا مستحيل إلا إذا آثر عباد الله الكفر وأن يكونوا غير مؤمنين..

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾[6].

وقال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٤.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠٢.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٤.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٥١.

حاد الله ورسوله﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾[3]. قالوا في الركون: هو الميل اليسير.

قال ابن عباس: «ولا تركنوا» قال: ولا تميلوا.

وقال الثوري: ومن لاث لهم دواة أو برا لهم قلماً، أو ناولهم قرطاساً دخل في هذا.

وقال ابن مسعود: ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾، قال: بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وليلقه بوجهٍ مكفهرّ أي عابس متغير من الغيظ والبغض[4].

هذه هي صفة الكفر بالطواغيت، وهكذا يجب أن تكون، أما أن يبسط لهم في الموالاة والتودد، ويركن إليهم، ويذود عنهم، ويتوسع في التأويل لهم، وينصرهم على من عاداهم من أهل التوحيد، ثم هو بعد ذلك يحسب أنه يكفر بالطواغيت، فهذا لا يكون مؤمناً بالله كافراً بالطاغوت، وهو من غرائب الأمور التي يشتد لها العجب!

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٤) مجموعة التوحيد، رسالة أوثق عرى الإيمان، للشيخ سليمان آل الشيخ.

واعجب من ذلك أناس يصورون ـ رهبة أو رغبة ـ الكفر بالطواغيت ومعاداتهم وبغضهم والخروج عليهم على أنه فتنة يجب اجتنابها، ثم يتكلفون في لي النصوص الشرعية التي قيلت في المسلمين وأئمة المسلمين ليحملوها على طواغيت اجتمعت فيهم جميع خصال الكفر والنفاق!!

ولهؤلاء ومن لف لفهم نقول: ما من نبي إلا وقد ابتلاه الله تعالى بطاغوت بل طواغيت يقارعهم ويجاهدهم ويبطل شركهم وكفرهم، ولتمايز بجهادهم النفوس فيُعرف المجاهد الصابر من المنافق القاعد المتخاذل، كما قال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾[1]. وقال تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾[2].

فعلام أنتم ـ دعاة الاقتداء بالأنبياء! ـ لا تريدون أن يكون لكم طواغيت تبتلون بهم، وتظهرون الحق والتوحيد من خلال مقارعتهم ومجاهدتهم..!!

فعلامَ تريدون أن تكونوا نشاذاً عن الأنبياء وتابعيهم من علماء الأمة العاملين، ليس لكم طواغيت تجاهدونهم وتبتلون بهم علماً أن الأرض تعج بآلاف الطواغيت التي تُعبد ـ جهاراً نهاراً ـ من دون الله تعالى؟!

فررتم من الفتنة بزعمكم، ولكنكم قد وقعتم فيها ودخلتموها من

(١) سورة محمد، الآية: ٣١.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢.

أوسع ابوابها وأنتم تدرون أو لا تدرون. ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا﴾[1].

٤ ـ تفسير النبي ﷺ لشهادة التوحيد:

من ضلالات مشايخ الإرجاء وتلبيساتهم على الناس حصرهم لشهادة التوحيد في دائرة النطق أو القول، حيث صوروا لهم أن من ينطق ـ مجرد النطق ـ بشهادة أن لا إله إلا الله، هو كافٍ لدخوله الجنة والحكم عليه بالإيمان مهما كان منه من عمل!

واستشهدوا بحديث «البطاقة» الصحيح، وبغيره من الأحاديث التي ظاهرها أن من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن وهو من أهل الجنة، فأخذوا هذه النصوص بمفردها وعزلوها عن بقية النصوص التي تفسر شهادة التوحيد وتبين المراد منها، وصفة قائلها الذي يحكم له بالإيمان وبدخول الجنة!

وهذا ينتفي مع الأمانة العلمية التي تقتضي أخذ مجموع النصوص الشرعية ذات العلاقة بالمسألة المراد بحثها، لذا فإننا نقول: عند الحديث عن شهادة التوحيد والوعد والوعيد لا بد من أخذ مجموع النصوص الشرعية ذات العلاقة بالموضوع، المفصل منها والمجمل والتي يفسر بعضها بعضاً، فإن خير تفسير يوضح مراد الشارع هو تفسير النصوص الشرعية بعضها لبعض.

وإليك بيان ذلك:

فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «بني الإسلام على خمس: شهادة

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجُ البيت، وصوم رمضان»[1].

فينبري مشايخ الإرجاء فيقولون: هذا نص يفيد أن المرء إذا أقر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإنه قد وفى بالمطلوب وقام بالواجب، وعليه نبني دعوتنا وقولنا..!!

قلنا لهم: على رسلكم ما هكذا تبنى الأحكام، تغمضون العين عن نصوص وتفتحونها على نصوص بحسب ما تهوى أنفسكم، ففي هذه الحالة يتعين عليكم النظر في الأحاديث الأخرى التي تبين المراد من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «بني الإسلام على خمس: على أن يوحد الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، والحج»[2].

فتأمل كيف استبدل شهادة التوحيد واستعاض عنها بعبارة «على أن يوحد الله» التي تعني شهادة أن لا إله إلا الله. والتوحيد المراد في هذا النص من مقتضياته إفراد الله تعالى بالعبادة والكفر بكل مألوه ومعبود سواه، وهذا يوضحه النص التالي:

قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: على أن يُعبد الله ويكفر بما دونه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

رمضان»[1].

فانظر كيف فسر النبي ﷺ شهادة التوحيد الواردة في النص المشكل على مشايخ الإرجاء، بأن يوحد الله تعالى، ثم بأن يعبد الله وحده ويكفر بالطاغوت وهو كل ما يعبد من دونه.

وعليه فإننا نقول: من شهد أن لا إله إلا الله على الوجه الذي فسره النبي ﷺ؛ وهو إفراد الله بالعبادة والكفر بكل ما يعبد دونه، فإنه قد وفى بالمطلوب وقام بالواجب، وشهادته بهذه الصورة تنفعه وتنجيه، وما سوى ذلك فهو مردود على قائله ـ أياً كان ـ لا قيمة له ولا وزن لمخالفته لتفسير وقول النبي ﷺ.

وكذلك قوله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرّم الله عليه النار»[2].

قالوا أيضاً هذا دليل على أن من نطق بالشهادتين وصرح بهما فإن مصيره إلى الجنة، وهو حرام على النار!!

قلنا لهم: إن لا إله إلا الله قيدت بقيود واشترط لها شروط في نصوص وأحاديث أخرى لا بد من مراعاتها والأخذ بها والعمل بمضمونها، وأن قائلها الذي يدخل الجنة لا بد له من أن يراعي في نفسه تلك القيود والشروط الزائدة عن الإقرار التي أطلقتها تلك النصوص.

منها، قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.

حرم ماله ودمه وحسابه على الله»[1] فقيدت بشرط الكفر بالطاغوت.

ومنها، قوله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[2]. فقيدت بالعلم ومعرفة معناها ومتطلباتها..

ومنها، قوله ﷺ: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرّمه الله على النار»[3]. وقال: «أبشروا وبشروا مَن وراءكم، أنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقاً بها دخل الجنة»(١). فأضاف قيد الصدق والإخلاص المنافي للتكذيب والنفاق..

ومنها، قوله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»[4] فأضاف انتفاء الشك بشهادتي التوحيد وبمدلولاتهما..

ومنها، قوله ﷺ: «من يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه، فبشره بالجنة»[5].

ومنها، قوله ﷺ: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة»(١). فلا بد من الموافاة عليها أي على التوحيد..

فهذه القيود وغيرها[6] التي أطلقتها النصوص الشرعية لا يمكن

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد والطبراني، صحيح الجامع: «٣٥٥».

(٣) ررواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه مسلم.

(٦) انظر شروط «لا إله إلا الله» في كتابنا «قواعد في التكفير» ص ٢١٣.

كتمانها أو تجاهلها عند الحديث عن لا إله إلا الله وصفة قائلها الذي ينتفع بها..

ورحم الله سيد قطب إذ يقول: ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم.. إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين، في أوطان كانت في يوم من الأيام داراً للإسلام، يسيطر عليها دين الله، وتحكم شريعته، ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام تهجر الإسلام حقيقة، وتعلنه اسماً، وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقاداً وواقعاً، وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقاداً، فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا الكون المتصرف فيه، وأن الله وحده هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله، وأن الله وحده الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله.. وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله بهذا المدلول فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد كائناً ما كان اسمه ولقبه ونسبه، وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله بهذا المدلول فهي أرض لم تدن بدين الله، ولم تدخل في الإسلام بعد..

وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين، وهم من سلالات المسلمين، وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام داراً للإسلام.. ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله بذلك المدلول، ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول.. وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام.

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله، ومدلول الإسلام في جانب، وبمدلول الشرك، وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر.

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين، واختلاط الشارات والعناوين، والتباس الأسماء والصفات والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق!.

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة، فيعكفون عليها توسيعاً وتمييعاً وتلبيساً وتخليطاً، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام.. تهمة تكفير المسلمين، ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحاتهم، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله؟.

إن الإسلام ليس بهذا التميّع الذي يظنه المخدوعون، إن الإسلام بيِّن والكفر بيِّن، الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله بذلك المدلول، فمن لم يشهدها على هذا النحو، ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين[1] ا. هـ.

---

[1] في ظلال القرآن: ١١٠٦.

خاتمــة

هذه كلمات نودعك بها أيها القارىء، ونستودعها عندك أمانة، فإنا ـ والله ـ لك ناصحون، وبك مشفقون، وعليك غيورون، وإنا لنذكرك بكلمات قلناها لك في مقدمة هذا الكتاب وطياته:

فاعلم أن أصل الأصول، وغاية الغايات هو إفراد الله تعالى وحده بالعبادة في جميع مجالاتها وتفرعاتها، والكفر بالطاغوت...

لا يصح من دونه بناء، ولا يُقبل عمل، وهو أول ما يجب أن تنهض به نحو ربك، وآخر ما تودع عليه الحياة..

لأجله خلق الله الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وفطر السماوات والأرض، وعليه يُعقد الولاء والبراء، وفي سبيله يُشرع الجهاد والقتال وترخص الدماء..

فيه منجاتك في الدنيا والآخرة، وفيه عزتك وكرامتك وحريتك، فحذاري أن تفرط به فتركن إلى الطواغيت أوهن من بيت العنكبوت، أو تُشغل عنه إلى ما هو دونه قبل أن تستوفيه حقه بحثاً وتعلماً وفهماً والتزاماً..

ولا يغرنك اشتغال القوم بالفروع والفقهيات والرقائق وغير ذلك قبل التمكن من هذا الأصل العظيم، فزهدهم بهذا العلم الجليل من تلبيسات إبليس عليهم ليسهل عليه جرهم إلى أعظم الظلم والذنوب وهو الاشراك بالله تعالى.

فكم من عالم اتسع صيته وكثرت شهاداته، وطالت مسبحته تراه واقعاً في الشرك ـ وهو يدري أو لا يدري ـ ومقراً له، ويدعو إليه، ولا يلفت نظره واهتمامه تزاحم الطواغيت التي تستشرف خصائص الإلٰهية والربوبيّة، هذا إذا لم يكن واقعاً في عبادتها والركون إليها. . كل ذلك بسبب غفلته عن التوحيد ومتطلباته.

فإن عبادة الطاغوت نتائجه وخيمة على جميع جوانب الحياة، وتكاليفه باهظة؛ تضحي في سبيله بالنفس والعرض والمال والولد ويريد منك المزيد، إلى جانب الخسران الكبير في الآخرة؛ حيث جهنم وبئس المصير.

قال تعالى: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾[1]، فهي ليست ظلمة واحدة بل ظلمات بعضها فوق بعض؛ ظلمات الشرك، وظلمات العبودية والخضوع للطواغيت، وظلمات النفس وضيق الصدر، وظلمات الحياة الضنك، وفي الآخرة ظلمات جهنم وكرباتها. .

قال تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مَثُوبَةً عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ومن يشرك باللّهِ فكأنما خرَّ من السماء فتخطفُهُ الطيرُ أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيق﴾[3].

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(2) سورة المائدة، الآية: ٦٠.
(3) سورة الحج، الآية: ٣١.

هذا جزاء من يشرك بالله تعالى، أما من يوحد الله فيعبده ولا يُشرك به شيئاً، فله البشرى في الحياة الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عبادِ. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾[2].

فكل هذه المنح الربانية مقابل ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾، فهل حققنا هذا الشرط في أنفسنا وفي أسرنا وفي حياتنا العامة ثم سألنا الله النصر والاستخلاف والتمكين، وأن يبدل خوفنا أمنا..؟

وفي هذا تذكير وبيان لدعاة التغيير الذين ينشدون قيام خلافة راشدة في الأرض: إذا لم تحققوا هذا الشرط الهام في أنفسكم وفي جماعاتكم وفي حياة الناس العامة، ولم تجعلوه همكم الأكبر وعلى رأس قائمة الأولويات التي يجب العمل لها.. فإن سعيكم لا طائل منه ولا فائدة، وهو كالركض وراء سراب، إلى جانب كونه مخالفاً لمنهج الأنبياء في الدعوة إلى الله.

---

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٦، ١٧.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

وفي الختام هذه كلمات مختارة من الظلال لسيد قطب ـ رحمه الله ـ يبين فيها ـ بأسلوبه الخاص ـ التكاليف الضخمة والتبعات الجثام الناجمة عن العبودية للطواغيت، كما ويبين فيها الخير الكبير والحسنات العظيمة الناجمة عن الكفر بالطواغيت وإفراد الله تعالى وحده بالدينونة والعبادة، حيث يقول: إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت، والدينونة لله وحده ـ مهما عظمت وشقت ـ أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت، إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة ـ مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق ـ إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة؛ تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته، فهذه الإنسانية لا توجد والإنسان عبد للإنسان، وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له الإنسان؟! وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به، ورضاه أو غضبه عليه؟! وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!

على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني.. إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس في حكم الطواغيت أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج، كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات، فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها، فيذبحهم على مذبح هواه، ويقيم في جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه، ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية حيث لا يملك أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت، سواء في صورة

الغضب المباشر - كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ - أو في صورة تنشئهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار، وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار، والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله إنما يعيش في وهم، أو يفقد الإحساس بالواقع!

إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال، ومهما تكن تكاليف العبودية لله، فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة فضلاً على وزنها في ميزان الله..

إن الدينونة لله تحرر البشر من الدينونة لغيره، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحريته الحقيقية، هذه الحرية وتلك اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر - غير النظام الإسلامي - يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية، في صورة من صورها الكثيرة؛ سواء عبودية الاعتقاد أو عبودية الشعائر، أو عبودية الشرائع.. فكلها عبودية، وبعضها مثل بعض تخضع الرقاب لغير الله؛ بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله.

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين، لا بد للناس من دينونة، والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله؛ في كل جانب من جوانب الحياة.

إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط، ومن ثم يفقدون خاصتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة.

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾.

ولا يخسر الإنسان شيئاً كأن يخسر آدميته ويندرج في عالم البهيمة، وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة لله وحده، والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة.

ثم هم يقعون فرائس لألوان من العبودية للعبيد، يقعون في شر ألوان العبودية للحكام والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم، لا ضابط لها ولا هدف إلا حماية مصالح المشرعين أنفسهم - سواء تمثل هؤلاء المشرعون في فرد حاكم، أو في طبقة حاكمة، أو في جنس حاكم - فالنظرة على المستوى الإنساني الشامل تكشف عن هذه الظاهرة في كل حكم بشري لا يستمد من الله وحده، ولا يتقيد بشريعة الله لا يتعداها..

ولكن العبودية للعبيد لا تقف عند حدود العبودية للحكام والرؤساء والمشرعين، فهذه هي الصورة الصارخة ولكنها ليست هي كل شيء، إن العبودية للعباد تتمثل في صور أخرى خفية؛ ولكنها قد تكون أقوى وأعمق وأقسى من هذه الصورة، ونضرب مثالاً لهذا تلك العبودية لصانعي المودات والأزياء مثلاً، أي سلطان لهؤلاء على قطيع كبير جداً من البشر.. كل الذين يسمونهم متحضرين.. إن الزي المفروض من آلهة الأزياء سواء في الملابس أو العربات أو المباني أو المناظر أو الحفلات.. ليمثل عبودية صارمة لا سبيل لجاهلي ولا لجاهلية أن يفلت منها، أو يفكر في الخروج عنها، ولو دان الناس في هذه الجاهلية الحضارية لله بعض ما يدينون لصانعي

الأزياء لكانوا عباداً متبتلين. . فماذا تكون العبودية إن لم تكن هي هذه؟ وماذا تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكن هي حاكمية وربوبية صانعي الأزياء أيضاً؟!

وليس هذا إلا مثلاً واحداً للعبودية المذلة حين لا يدين الناس لله وحده، وحين يدينون لغيره من العبيد، وليست حاكمية الرؤساء والحكام وحدها هي الصورة الكريهة المذلة لحاكمية البشر للبشر، ولعبودية البشر للبشر!

وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم، التي تصبح كلها ولا عاصم لها عندما يدين العباد للعباد في صورة من صور الدينونة، سواء في صورة حاكمية التشريع، أو في صورة حاكمية الأعراف والتقاليد، أو في صورة حاكمية الاعتقاد والتصور. .

إن الدينونة لغير الله في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي، والتي تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صوراً منها، وتمثل أوهام العوام المختلفة صوراً منها، وتقدم فيها النذور والأضاحي من الأموال وأحياناً من الأولاد تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف، ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة، ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأرباب، ومن السحرة المتصلين بالجن والعفاريت، ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار، ومن. . ومن. . من الأوهام التي ما يزال الناس منها في رعب وفي خوف وفي تقرب وفي رجاء، حتى تقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم، وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء!

وأخيراً تجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية، وما من أضحية يقدمها عابد الله لله إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة من الأموال والأنفس والأعراض. .

وتقام أصنام من الوطن، ومن القوم ومن الجنس، ومن الطبقة، ومن الإنتاج، ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب. .

وتدق عليها الطبول، وتنصب لها الرايات، ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد، وإلا فالتردد هو الخيانة وهو العار، وحتى حين يتعارض العِرض مع متطلبات هذه الأصنام، فإن العرض هو الذي يضحي، ويكون هذا هو الشرف الذي يراق على جوانبه الدم كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام، ومن ورائها أولئك الأرباب من الحكام!

إن كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليعبد الله وحده في الأرض، وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام، ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده الله للإنسان. . إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليبذل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله، والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل الله، عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد، وفوقها الأخلاق والأعراض، إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله، وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار![1]

(١) في ذلك عبرة وعظة للذين لا يزالون يصررون الخروج على طواغيت الكفر =

، وهناك ظاهرة واضحة متكررة.. وهي أنه كلما قام عبد من عبيد الله ليقيم من نفسه طاغوتاً يُعبَد الناس لشخصه من دون الله، احتاج هذا الطاغوت كي يُعبد - أي يطاع ويتبع - إلى أن يسخر كل القوى والطاقات! أولاً لحماية شخصه، وثانياً لتأليه ذاته، واحتاج إلى حواشٍ وذيول وأجهزة وأبواق تسبح بحمده، وترتل ذكره، وتنفخ في صورته العبدية الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان الألوهية العظيمة! وألا تكف لحظة واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة، وإطلاق الترانيم والتراتيل حولها، وحشد الجموع - بشتى الوسائل - للتسبيح باسمها، وإقامة طقوس العبادة لها..!

وهو جهد ناصب لا يفرغ أبداً، لأن الصورة العبدية الهزيلة التي ما تني تنكمش وتهزل وتتضاءل كلما سكن من حولها النفخ والطبل والزمر والبخور والتسابيح والتراتيل، وما تني تحتاج كرة أخرى إلى ذلك الجهد الناصب من جديد!

وفي هذا الجهد الناصب تصرف طاقات وأموال - وأرواح أحياناً وأعراض! - لو أنفق بعضها في عمارة الأرض والإنتاج المثمر لترقية الحياة البشرية وإغنائها لعاد على البشرية بالخير الوفير، ولكن هذه الطاقات والأموال - والأرواح أحياناً والأعراض - لا تنفق في هذا السبيل الخير المثمر ما دام الناس لا يدينون لله وحده وإنما يدينون للطواغيت من دونه.

= بأنه أشد فتنة وأكثر كلفة من السكوت عليهم والرضى بهم، وكأني بهم قد فاتهم حجم التضحيات والتكاليف التي يثير إليها سيد رحمه الله!!

ومن هذه اللمحة يتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والإنتاج من جراء تنكبها عن الدينونة لله وحده، وعبادة غيره من دونه، وذلك فوق خسارتهم في الأرواح والأعراض، والقيم والأخلاق، وفوق الذل والقهر والدنس والعار! ولبس هذا في نظام أرضي دون نظام، وإن اختلفت الأوضاع واختلفت ألوان التضحيات.

ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده، فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته، قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره. العبودية التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم، مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة.

لقد هربت أوربا من الله ـ في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف ـ وثارت على الله سبحانه في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة، ثم ظن الناس أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم ومصالحهم كذلك في ظل الأنظمة الفردية (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية، والأوضاع النيابية البرلمانية، والحريات الصحفية، والضمانات القضائية والتشريعية، وحكم الأغلبية المنتخبة إلى آخر هذه الهالات التي احيطت بها تلك الأنظمة.. ثم ماذا كانت العاقبة؟ كانت العاقبة هي طغيان الرأسمالية ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات، وكل تلك التشكيلات إلى مجرد لافتات، أو إلى مجرد

خيالات! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال فتملك معه الأغلبية البرلمانية، والدساتير الوضعية، والحريات الصحفية، وسائر الضمانات التي ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم، في معزل عن الله سبحانه!!

ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها رأس المال والطبقة إلى الأنظمة الجماعية! فماذا فعلوا؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة الرأسماليين الدينونة لطبقة الصعاليك! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين!

وفي كل حالة، وفي كل وضع، وفي كل نظام دان البشر فيه للبشر، دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة، دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حال.

إنه لا بد من عبودية، فإن لم تكن لله وحده تكن لغير الله، والعبودية لله وحده تطلق الناس أحراراً كراماً شرفاء أعلياء، والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية.

من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالات الله سبحانه وفي كتابه، فهي قضية لا تتعلق بعبادة الأصنام والأوثان في الجاهليات الساذجة البعيدة، ولكنها تتعلق بالإنسان كله، في كل زمان وفي كل مكان، وتتعلق بالجاهليات

كلها، جاهليات ما قبل التاريخ، وجاهليات التاريخ، وجاهليات القرن العشرين، وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد.

والخلاصة التي ينتهي إليها القول في هذه القضية: أن قضية الدينونة والاتباع والحاكمية هي قضية عقيدة أو إيمان وإسلام، وليست قضية فقه أو سياسة أو نظام، إنها قضية عقيدة تقوم أو لا تقوم، وقضية إيمان يوجد أو لا يوجد، وقضية إسلام يتحقق أو لا يتحقق.

وكذلك فإن قضية العبادة ليست قضية شعائر، وإنما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة.. وإنها من أجل أنها كذلك استحقت كل هذه العناية في المنهج الرباني المتمثل في هذا الدين، واستحقت كل هذه الرسل والرسالات، واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات[1] ـ أهـ.

وفي ذلك ذكرى لمن أراد أن يذكر، أو ألقى السمع وهو شهيد.

أسأل الله تعالى القبول، والعفو، والثبات وحسن الختام، وأن ينفعني وجميع العباد بهذا الكتاب، إنه تعالى سميع قريب مجيب.

وصلّى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٤ رمضان ١٤١٦ هـ   أبو بصير

---

(١) في ظلال القرآن: ١٣١٩/٣ و ١٩٣٩/٤ ـ ١٩٤٣.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة